جامعة الأزهر

الإعجاز و القصص
فى
القرآن الكريم

نأليف
الأستاذ الدكتور
على حسن رضوان

كلية أصول الدين و الدعوة بطنطا

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

بسم الله الرحمن الرجيم

مقدمة

الحمد لله الذى أنزل القرآن هدى وأودع فيه من الأحكام والأخلاق ما فيه السعادة للناس أجمعين والصلاة والسلام على النبى الأمى الذى أرسله الله رحمة للعالمين بلسان عربى مبين.

وبعد

فهذه أبحاث فى علوم القرآن أبدؤها أولا بالإعجاز البيانى للقرآن الكريم ووقوعه فعلا.

الأعجاز والمعجزة لغة وشرعاً

أولا : الإعجاز لغة مصدر أعجز يعجز اعجازاً

والإعجاز هو إثبات العجز فى الغير ثم استعمل فى لازمه وهـو إظهـار العجـز فى الغير وقال فى مختار الصحاح : وأعجزه الشئ فاته وعجـزه تعجـيزا ثبطـه أو نسبه إلى العجز، والمعجـزة واحـدة معجـزات الأنبيـاء عليهـم الصـلاة والسـلام فالإعجاز البيانى للقرآن الكريم إذن بناء على هذا المفهوم اللغوى هو :-
إظهار عجز البشر على الإتيان بمثله أو بأقصر سورة منه.

ثانياً : المعجزة لغة واحدة المعجزات وهى شرعاً .

الأمر الخارق للعادة يظهره الله على يد مدعـى النبـوة تـأييداً لرسـالته وتقريـرا لنبوته مع اقترانه للتحدى وسلامته من المعارضة .

وقوع الإعجاز البيانى للقرآن الكريم فعلا

المعجزة الكبرى لرسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته وبعد وفاته هى القرآن الكريم لما ثبت له من الإعجاز والتحدى وعدم المعارضة والإتيان بشئ منه منذ نزل حتى اليوم وهو كذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فلقد تحدى القرآن الكريم أعداءه وكرر التحدى أكثر من مرة دعاهم أن يأتوا بمثله

فعجزوا ثم دعاهم أن يأتوا بمثل عشر سور منه فعجزوا ثم دعاهم أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه فعجزوا ثم أثبت عليهم عجزهم بقوله ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾(١)

فلم يعارضه أحد من أعدائه ولو كان الإتيان بمثله أو بشئ منه فى مقدورهم لبادروا إليه وأبطلوا بذلك حجته على صدق الرسالة ولَمَّا رضوا بتحكيم السيف فى رقابهم وسبْى ذراريهم ونسائهم وهجْر ديارهم وأوطانهم كيف والقوم قد بلغوا النهاية فى ذرابة اللسان وفصاحته وبلاغة الكلام وجودته وهم أرباب الشعر والنثر وفرسان الكلام فى كل مقام وإذا عجز الذين نزل القرآن بلغتهم فعجز غيرهم من باب أولى، وإذا عجز معاصروا نزوله من العرب فعجْز مَن جاء بعدهم من باب أولى، إن القرآن الكريم قد تحداهم وهم أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء وكله حجج ناصعة وأدلة قوية على عجز العرب عن معارضة القرآن الكريم وإعجاز القرآن البيانى للعرب أمر لا مِرْية فيه ولا خلاف.

قد أتفق على ذلك الناس مؤمنهم وكافرهم وقد شهد بذلك الواقع والتاريخ وكل من كتب فى الإعجاز يثبت إعجاز القرآن للعرب بنحو ما أثبته الجاحظ فى كلامه والباقلانى فى كتابه إعجاز القرآن والزركشى فى "البرهان فى علوم القرآن"(٢)

(١) سورة الإسراء آية ٨٨

(٢) إعجاز القرآن للباقلانى ص ١٤٦ ، ١٤٧ من الإتقان.

بم يتحقق الإعجاز ؟

الإعجاز لا يتحقق إلا بمثل هذه الأمور وهى :

١- التحدى وهو طلب المعارضة .

٢- كون الدافع إلى رد التحدى موجودا وقائماً.

٣- أن يكون المانع لهذا التحدى منتفيا .

فالإعجاز إذن لا يتحقق إلا بالتحدى والمعارضة وأن يكون هناك دافع إلى رد هذا التحدى وأن يكون المانع لهذا التحدى غير موجود ونحن نعلم أن القرآن الكريم إنما هو من عند الله تعالى أنزله على رسوله صلى الله عليه وسلم ليكون معجزته الخالدة وحجته الباقية الشاهدة على عجز من تحداهم القرآن فعجزوا إلى الآن وإلى قيام الساعة ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم تلقى علومه ومعارفه من عند ربه تبارك وتعالى وأنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ولم يذهب إلى معلم ولم يأخذ العلم من أحد.

بيان الأقوال فى القدر الذى يقع فيه الإعجاز :

هذا وقد اختلف فى القدر الذى يقع به الإعجاز فقيل :

١- يتعلق الإعجاز بالقرآن الكريم كله ويرد هذا القول قوله تعالى من آيات التحدى ﴿ قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ﴾(١)

---

(١) سورة هود آية ١٣

وقوله تعالى : ﴿وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثلهوادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾(١) ودليل صاحب هذا القول قوله تعالى ﴿ قل لئن إجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾

ونقول إن التحدى وقع أولا بالقرآن كله فعجز القوم ثم أرخى لهم سبحانه العنان وجاراهم فتحداهم أن يأتوا بمثل عشر سور منه ولو مفتريات فعجزوا ثم جاراهم وتحداهم أن يأتوا بمثل أى سورة من سوره ولو قصيرة فعجزوا فالتحدى كما وقع بالكل وقع بالبعض من سوره قصد اعذارهم وقطع اعتذارهم فلا يقولون بعد تكرار التحدى تحديتنا بكل القرآن ولو تحديتنا ببعض سورة لأتينا بمثله وكما تحداهم سبحانه أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه فعجزوا تحداهم أن يأتوا بحديث مثله سواء كان ذلك الحديث سورة أو ما يعادلها مهما كانت قصيرة بحيث يتبين فيها تفاضل قوى البلاغة فقال سبحانه ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾(٢) وفى هذا نهاية التحدى ونهاية مجاراة الخصم وارخاء العنان له لإلقامه الحجة وابقائه على المحجة .

٢- وقيل يتعلق الإعجاز بقليل القرآن وكثيرة لقوله تعالى ﴿فليأتوا بحديث مثله﴾وهذا القول قد أطلق القدر الذى يقع به الإعجاز مهما قل ولو لم يظهر فيه تفاضل قوى البلاغة تشبثا بظاهر الآية ولكن لا دلالة فى الآية فقد قال القاضى رداً على صاحب هذا القول (ولكن لا دلالة فى الآية لأن الحديث التام

(١) سورة البقرة آية ٢٣

(٢) سورة الطور آية ٣٤

لا تتحصل حكايته فى أقل من كلمات سورة قصيرة).

٣- وقيل يتعلق الإعجاز باى سورة كانت ولوقصيرة أو ما يعادلها مما يتأتى فيه تباين وتفاضل قوى البلاغة وهو الصحيح وما يعادل السورة قد يكون آية لكن بشرط أن يكون كلاما تاما تتأتى فيه المفاضلة بين قوى البلاغة والمعادلة في قدر حروف السورة .

٤- وقيل لا يتعلق الإعجاز بآية بل لابد من الآيات الكثيرة وهذا القول يرده عموم (فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين) فإن الحديث التام يتأتى فى آية تعادل سورة قصيرة فاذا وجدت آية تعادل أقصر سورة وكان فيها الحديث تاما وكانت بحيث تتفاضل فيها بلاغة الأسلوب وجمال التعبير تعلق بها الإعجاز ففى البرهان للزركشى (قال القاضى أبو بكر ذهب عامة أصحابنا - وهو قول أبى الحسن الأشعرى فى كتبه - إلى أن أقل ما يعجز عنه من القرآن السورة قصيرة كانت أم طويلة أو ما كان بقدرها قال فإذا كانت الآية بقدر حروف السورة وان كانت كسورة الكوثر فذلك معجز قال : ولم يقم دليل على عجزهم عن المعارضة فى أقل من هذا القدر.

وذهبت المعتزلة إلى أن كل سورة برأسها فهى معجزة وقد حكى عنهم نحو قولنا الا أن منهم من لم يشترط كون الآية بقدر السورة بل شرط الآيات الكثيرة)(١) هذا وآية البقرة تحمل معنى أخر من التحدى وهو الإخبار عن عدم إتيانهم فى المستقبل بسورة من مثله بعد الإخبار عن عجزهم فى الحال من ذلك حيث

(١) البرهان للزركشى ص ١٠٨ ج ٢

يقول سبحانه ﴿ وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهدائكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ فقد أخبر سبحانه عن عجزهم حال التحدى بقوله فإن لم تفعلوا وأخبر عن عجزهم فى المستقبل بقوله ولن تفعلوا فوقع الأمر فى المستقبل كما أخبر سبحانه وتعالى.

أقوال العلماء فى الوجه الذى كان به القرآن الكريم معجزا

لا خلاف بين العلماء فى أن القرآن معجز وأن الإعجاز قد وقع فعلا كما تقدم وإنما وقع اختلافه فى الوجه الذى كان به القرآن الكريم معجزا أى فى سبب الإعجاز وسره وقد سار كل منهم بجواده فى صحراء الآراء لالتماس ما يراه من الأسرار وإليك الأقوال المقبولة فى وجوه الإعجاز أولا ثم نتبعها بالأقوال المرفوضة ثانيا .

أولا : الأقوال المقبولة

القول الأول: إن إعجاز القرآن بسبب ما تضمنه من علوم ومعارف فقد أنزل الله سبحانه القرآن الكريم كتاب تشريع وهداية للناس ، بيّن أحسن العقائد وأجمل الأخلاق وشرع للناس ما فيه صلاحهم فى الدنيا والآخرة فقد شرع لهم العبادات التى تنظم علاقتهم به سبحانه وتزرع الرحمة والمودة فى قلوبهم وتعلمهم التعاون والإيثار ونظم علاقة الأفراد والجماعات فى السلم والحرب كما نظم علاقة الإنسان بأهله وذويه وحث على التكامل والتضامن ووضح

الحقوق والواجبات ووضع الحدود لاستتباب الأمن وحفظ الأنفس والأموال والعقل والأعراض وبين لهم كل ما فيه من خير وصلاح فجاء وافيا بحاجات الناس مستكملا أسباب السعادة وهذا أمر لا يكون مثله من البشر مهما كان الواضع من صفاء العقل وحدة الذهن .

القول الثاني: من وجوه إعجاز القرآن ما جاء به من علوم كونية فإن كتاب الله قد أشار إلى لطائف الكون وعجائبه فى كثير من الايات الكونية مثل قوله تعلى ﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولوجئنا بمثله مدادا﴾(١) ومثل قوله تعالى ﴿ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله ﴾(٢) ومثل قوله تعالى ﴿ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار ﴾(٣) إلى غير ذلك من الآيات التى تشير إلى عجائب الكون ودقيق صنع الله تعالى وعظيم قدرته ودلائل وحدانيته تأمل قوله تعالى ﴿وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج

(١) سورة الكهف آية ١٠٩

(٢) سورة لقمان آية ٢٧

(٣) سورة النور آية ٤٣

وجعل بينهما برزخاً وحجرا محجور وهو الذى خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا وكان ربك قديرا﴾(١) فهذا أمر طالما حار فى إدراكه العلم الحديث ثم استقر أمر العلماء أخيرا إلى أن ما أشار إليه القرآن هو آخر ما وصل إليه أحدث النظريات العلمية ثم تأمل قوله تعالى ﴿ أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسى وجعل بين البحرين حاجزا أءله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾(٢) والذى يتأمل الحشد الكثير من الآيات الكونية يظهر له أنه ليس المراد من الكلمات فى قوله تعالى ﴿ لكلمات ربى﴾ الكلمات المنزلة إذ هى محصورة ومعدودة بل المراد كلماته النافذة فى خلقه والتى يبدو أثرها واضحا جليا فى الكون ممثلا فى الحوادث الجارية من أرض وسماء وكواكب ورياح وأمطار وزرع ودرع وجبال وبحار وأنهار ورمال وحياة وموت وليل ونهار وفقر وغنى وصحة ومرض وغدو ورواح وحرب وسلام وغير ذلك مما لا يحصيه العد ولا يحصره الحد.

ولقد وضح الأستاذ جمال الدين الفندى فى كتابه (القرآن والعلم) الكثير من الحقائق العلمية التى أشار إليها القرآن الكريم و وقفت عندها خاضعة بحوث العلماء فى نهاية مطافها فهو يتحدث عن قوله تعالى ﴿ألم تر أن الله يزجى سحابا ﴾ فيقول تحت عنوان (تكوين السحب الركامية وعواصف الرعد)(٣)

---

(٢) سورة الفرقان آية ٥٤

(٢) سورة النمل آية ٦١

(٣) القرآن والعلم ص ١٢٤

من أروع ما ذكره القرآن من حقائق الطبيعة الجوية الطريقة التى تتكون بها السحب الركامية تلك السحب التى تنمو رأسيا وقد يصل سمكها إلى أكثر من ١٥ كيلو مترا ويتيح لها هذا النمو فى الاتجاه الرأسى أن تمتد طبقاتها من قرب سطح الأرض حيث تكون درجة الحرارة ٣٠ درجة سنتجراد مثلا إلى أعالى طبقة التربوسفير حيث تنخفض درجة الحرارة إلى أقل من ٤٠ درجة سنتجراد تحت الصفر ولا تتوفر هذه التوزيعات فى جو الأرض عبر مسافة لا تتعدى ٢٠ كيلو مترا إلا فى الاتجاه الرأسى الذى تنمو فيه السحب الركامية ن ولتكوين السحب الركامية قصة اكتملت معالمها عندما اخترع الأنسان الرادار وراح يصور به الأجسام البعيدة أو اخرة الطليقة فى جو الأرض.

أما مصدر الشحنات الكهربائية التى تسبب عواصف البرق والرعد فقد كانت من أهم ميادين البحث والتنقيب خلال عشرات السنين وظهرت فى هذا السبيل العديد من النظريات ولكن القرآن الكريم قرر فى بساطة علمية معجزة أن البرق المسئول عن تلك الشحنات فى آية من الآيات الكريمة التى تعرضت دون شك إلى تفاصيل علمية هامة سبقت بها ركب العلم بمئات السنين تلك الآية هى قوله تعالى ﴿ألم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار.

وقد أشار فى كلامه عن هذه الآية إلى الحقائق العلمية التى تحملها الآية مثل السحب الركامية - عواصف الرعد - منطقة بلورات الثلج العليا فى السحب الركامية - ربط الآية بين البرد والبرق (أو انفصال الشحنات الكهربائية داخل

السحب) خطف البرق للأبصار - وهو أشد ما يعانيه الطيار من أخطار فى حالات عواصف الرعد خصوصا فى المناطق الحارة الرطبة حيث تبلغ ومضات البرق فى الدقيقة الوحدة ٤٠ ومضة أو شرارة هائلة فيصيبه فقد البصر ولا يقوى على الاستمرار فى قيادة طائرته .

هذا وقد تكلم كثيرا وأفاض فى آيات الله الكونية مبينا مدى عظمة القرآن الكريم فى احاطته الحقائق العلمية وأشاراته الدقيقة التى تدل على أنه من عند خالق الكون الذى أحاط بكل شئ علما .

القول الثالث: إن وجه الإعجاز فى القرآن الكريم إنما هو فى اخباره بالغيوب وقد اشتمل القرآن الكريم على كثير من الآخبار بالغيب التى وقعت كما أخبر ومن ذلك قوله تعالى ﴿ألم غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله﴾ (١) فقد أخبر سبحانه أن الروم قد غلبت من الفرس وقت نزول السورة سورة الروم وأنها ستغلب فيما بعد وأنه سيحصل نصر للمؤمنين يفرحون به عندما تغلب الروم الفرس وهذا النصر الذى فرح به المؤمنون هو فرحهم بنصرهم على المشركين فى غزوة بدر الذى وافق نصر الروم على فارس وقد فرح المسلمون بنصرهم على المشركين فى بدر كما فرحوا بنصر الروم على فارس لكون الروم أهل كتاب دون الفرس.

---

(١) أول سورة الروم.

ومن ذلك أيضا أخباره بعدم تمنى اليهود الموت بقوله تعالى ﴿قل أن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الوت إن كنتم صادقين ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم﴾(١) أخبر سبحانه أنهم لن يتمنوه أبدا وقد كان الأمر كما أخبر سبحانه فما تمنى الموت أحد منهم أبدا.

وكما أخبر القرآن الكريم عن غيب مستقبل فقد أخبر عن غيب مضى وذلك فيما قصه علينا من أخبار وأحوال وعافيه الأمم الدارسة التى ذهبت معالمها وطواها النسيان وعفى عليها الزمن وقد صدقته الكتب القديمة فيما أخبر به ومن أخبار القرآن الكريم بالغيب أخباره عن خلجات القلوب وخطرات النفوس ومكونات الصدور . وهذا الإخبار بالغيبيات دليل على أن القرآن الكريم وحى من رب العالمين نزل به الأمين جبريل على قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم تصديقاً لدعوته وتأييداً لنبوته ورسالته كما أنه وجه الإعجاز فى كتاب الله سبحانه .

وأمثلة الإخبار بالمغيبات مع تنويعها كثيرة فى القرآن الكريم ومنها قوله جل جلاله ﴿ وماكنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ ومن ذلك ما قصه علينا من قصة أدم عليه السلام التى جرى فيها ما جرى بشأن آدم وإبليس والملائكة فى الملأ الأعلى من سجود الملائكة لأدم عليه السلام وعصيان إبليس وما ترتب على امتناعه من السجود من طرده من الجنة إلى غير ذلك من أحداث القصة التى لم نكن لتعلم إلا من القرآن الكريم .

---

(١) البقرة . ٩٤ -٩٥

القول الرابع : إن وجه إعجاز القرآن الكريم خطابه العامة بما يخاطب به الخاصة وليس ذلك من عادات البشر فى كلامهم فالخاصة لهم كلام يناسب مستواهم والعامة لهم خطاب يلائم ادراكهم فمن خاطب العامة يخاطب الخاصة فقد عمى عليهم ومن خاطب الخاصة يخاطب العامة فقد أذرى بهم وحط من مكانتهم ونزل كلامه عن درجة القبول أما أن ياقى الكلام الواحد إلى من تختلف درجاتهم وتتفاوت استعداداتهم وتتباين ملكاتهم بطريقة واحدة ويناسب كلا من العامة والخاصة فذلك ما لا يتأتى إلا للقرآن الكريم معجز البشر وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾(١)

القول الخامس :أن إعجازه فى الروعة التى تلحق قلوب سامعية والهيبة التى تستولى عليهم عند تلاوته لقوة حالة وبيانه وسواء فى ذلك المؤمن والكافر فالكافر يستثقل سماعه وتزيده الروعة نفورا وأما المؤمن فيسر بسماعه وتستريح نفسه وتزداد فى قلبه هيبة القرآن وروعتة حتى يقشعر بدنه قال تعالى ﴿تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تيلن جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾(٢) وذلك شئ قد خص به القرآن الكريم دون أى كلام سواه قال القاضى عياض فى (الشفا) فى بيان هذا المعنى (وهو الهيبة التى تعترى المؤمن والكافر من أن يفهم معانيه ومن لم يفهم كما روى عن نصرانى أنه مر بقارئ فوقف يبكى

---

(١) القمر- ١٥

(٢) الزمر- ٢٣

فقيل مم بكيت قال للشجى والنظم. وهذه اللوعة قد اعترت جماعة قبل الإسلام وبعده فمنهم من أسلم لها لأول وهلة وآمن ومنهم من كفر فحكى فى الصحيح عن جبير بن مطعم قال سمعت النبى صلى الله عليه وسلم بقرآن فى المغرب (والطور) فلما بلغ هذه الآية ﴿أم خلقوا من غير شئ أم هو الخالقون ﴾(١) إلى قوله ﴿ المسيطرون﴾ كاد قلبى أن يطير للإسلام وفى رواية وذلك أول ما وقر الإسلام فى قلبى، وعن عتبة بن ربيعة أنه كلم النبى صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من خلاف قومه فتلا عليهم :﴿ حم ﴾ فصلت إلى قوله ﴿ صاعقة عاد وثمود ﴾ فأمسك عتبة بيده على فى النبى صلى الله عليه وسلم - وناشده الرحم أن يكف(٢)

القول السادس : أن وحه إعجازه فى كونه آية باقية ما بقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه إذ يقول﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له حافظون ﴾(٣) وبخلاف غيره من سائر معجزات الأنبياء فإنها نقضت بانقضاء أوقاتها أما هو وآياته باهرة

---

(١) الطور-٣٥

(٢) ص ٢٣١ ، ص ٢٣٢ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى

(٣) الحجر-٩ .

ومعجزاته ظاهرة وحجته قائمة وتحديهم مستمر وحالة اليوم وبعد اليوم(١) كحاله يوم نزل لا تغيير فيه ولا تبديل ولا تحريف ولا وهن وبهذا كان القرآن الكريم أفضل المعجزات لأنه وحى منقول بالتواتر باق ومتحدّ ما بقيت الدنيا وهو معجزة عقلية دون سائر معجزات الأنبياء فإنها كانت حسية.

القول السابع : أن قارئه لا يمله وسامعه لا يمجه بل يزداد حلاوة بكثرة تلاوته وحسنا بترداده وإعادته فهو لا يزال غضا طريا عظيما بهيا مهما مرت عليه الدهور وكرت العصور، وغيره من كلام يمل إذا أعيد ،ويسيئ إليه الترديد مهما بلغ من الجودة والحسن والجذالة والملاحة لأنه كلام البشر وكيف يبلغ مبلغ كلام خالق القُوى والقُدَر .

قول الثامن : إن إعجازه فى جمعه بين الدليل والمدلول يقول صاحب الشفا " وذلك أنه احتج بنظم القرآن وحسن وصفه(٢) وإعجازه وبلاغته وأثناء هذه البلاغة أمره ونهيه ووعده ووعيده فالتالى له يفهم موضع الحجة والتكليف ما من كلام واحد وسورة مفردة(٣)

---

(١) روى الحافظ ابن كثير فى فضائل القرآن بسنده عن أبى هريرة قال قال النبى صلى الله عليه وسلم : ما من الأنبياء الا أعطى ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة ص ٤ الحديث الثالث من فضائل القرآن.

(٢) فى نسخه : وحسن رصفه وهو الأنسب للمقام .

(٣) الشفا - ٢٣٥

القول التاسع : أن إعجاز القرآن الكريم فى نظمه وأسلوبه وفى فصاحته وبلاغته وفى تعانق جمله وتناسب آياته فى درجة ليس لها مثيل وفى حالة لا تشرئب إليها أعناق الفحول من أرباب البلاغة والبيان **وهذا هو الرأى المختار** عند العلماء وسأخصه بالتوضيح والأدلة على وجاهته فيما بعد لأنه مذهب أهل السنة ومذهب أبى الحسن الأشعرى إمام أهل السنة فى العقائد .

القول العاشر:أن إعجازه فى العلوم المستنبطة منه يقول السيوطى(١) فى "معترك الأقران فى إعجاز القرآن" عن هذا الوجه من وجوه الإعجاز وكيف لا وقد احتوى على علوم ومعارف لم يجمعها كتاب من الكتب ولا أحاط بعلمها أحد فى كلمات قليلة أو أحرف معدودة قال تعالى ﴿ما فرطنا فى الكتاب من شئ﴾(٢) وقال ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شئ﴾(٣) وقال صلى الله عليه وسلم "ستكون فتن كقطع الليل المظلم ، فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم " أخرجه الترمذى وغيره وأخرج سعيد بن منصور عن ابن مسعود قال من أراد العلم فعليه بالقرآن فإن فيه علم الأولين والأخرين قال البيهقى يعنى أصول العلم ، وقد قال السيوطى ضمن ما قاله فى بيان هذا الوجه .وقال الشافعى مرة بمكة سلونى عما شئتم أخبركم عنه من كتاب الله

(١) معترك الأقران ص ١٤ وص ١٥ ج
(٢) الأنعام -٣٨.
(٣) النحل -٨٩

فقيل له : ما تقول فى المحرم يقتل الزنبور فقال : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾(١)

القول الحادى عشر: تشابه النظم فيه . أو مشتبهات آياته كما قال السيوطى تكرار القصص فيه مع تلاقى كل قصة مع الأخرى فى التعبير، هو وجه الإعجاز كما يقول السيوطى فى معترك الأقران(٢) وذلك أن القصة الواحدة ترد فى سور شتى وفواصل مختلفة بأن يأتى فى موضع واحد مقدما وفى آخر مؤخرا كقوله فى البقرة ﴿ وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة ﴾(٣) وفى الاعراف ﴿وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا ﴾(٤) وفى البقرة ﴿ وما أهل به لغير الله﴾(٥) وسائر القرآن ﴿ وما أهل لغير الله به ﴾(٦) وفى موضع بزيادة وفى موضع بدونها نحو ﴿ سواء عليهم أأنذرتهم ﴾(٧) وفى يس ﴿وسواء ﴾ (٨) وفى البقرة ﴿ويكون الدين لله ﴾ (٩)

حشر-٧

(٢) معترك الأقران ص ٨٥ والتى تليها ج ١

(٣) البقرة-٥٨

(٤) الأعراف-١٦١

(٥) البقرة -١٧٣

(٦) المائدة.-٣

(٧) البقرة -٦

(٨) يس-١٠

(٩) البقرة-١٩٣

وفى الأنفال ﴿كله لله﴾(١) وفى موضع معرفا وفى آخر منكرا أو مفردا، فى آخر جمعا وقد ألف الكرمانى فى أسرار اختلاف النظم كتابا سماه "البرهان فى متشابه القرآن ."

وقد ألف فيه أبو عبد الله الرازى (درة التنزيل وغرة التأويل) ولأبى جعفر بن الزبير فى ذلك (ملاك التأويل فى متشابه التنزيل كما للقاضى بدر الدين بن جماعة (كشف المعانى عن متشابه المثانى) وللسيوطى فى ذلك (قطف الأزهار فى كشف الأسرار) ذكر ذلك السيوطى فى "معترك الأقران فى إعجاز القرآن "(٢)

هذه وجوه من وجوه إعجازه التى أوصلها السيوطى إلى خمسة وثلاثين وجها وكلها وجوه مقبولة تبين عظمة القرآن وسر إعجازه وقد قال السيوطى فى معترك الأقران عند الكلام عن (إعجاز القرآن) فى أول الكتاب المذكور (وأنهى بعضهم وجوه إعجازه إلى ثمانين والصواب أنه لا نهاية لوجوه إعجازه كما قال السكاكى فى المفتاح . أعلم أن إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفة كاستقامة الوزن ولا يمكن وصفها وكالملاحة وكما يدرك طيب النغم العارض لهذا الصوت ولا يدرك تحصيله غير ذوى الفطر السليمة إلا باتقان علمى المعانى والبيان والتمرين فيهما)(٣)

---

(١) الأنفال-٣٩

(٢) ص ٨٦ ج١

(٣) ص ٣ ومابعدها

وأقول إن قصة آدم عليه السلام مثل رائع لهذا القول فى وجه الإعجاز فتكرار القصة جملة فى أكثر من سورة بصور مختلفة وتكرار جملها بصور متنوعة ةتشابه النظم فيها جملة وفى بعض آياتها أكبر دليل على إعجاز القرآن فى بلاغته ومثلها فى ذلك بقية قصص القرآن الكريم .

هذه بعض الأقوال المرضية المقبولة وإليك الأقوال المرفوضة المرذولة التى قيل بها فى وجه الإعجاز.

ثانيا : الأقوال المرفوضة التى قيل بها فى وجه الإعجاز

القول الأول : أن التحدى والإعجاز كان بالكلام القديم أى الصفة القائمة بالذات الواجب الوجود قالوا إن القرآن كلام الله سبحانه وتعالى صفة قائمة بذاته تعالى فالتحدى إنما هو بالصفة القديمة وقالوا إن العرب كلفوا فى ذلك بما لا يطاق فعجزوا.

وهذا قول باطل مردود لأن التحدى لم يكن بالصفة القديمة لأن الصفة القديمة ليست بحرف ولا بصوت وهى منزهة عن التقديم والتأخير والإعراب والبناء والآيات الباطنية فأنى يكون بها التحدى لمن كلامه الحروف والألفاظ وما كان التحدى إلا بأثر تلك الصفة القديمة وهو القرآن الكريم والوحى المنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم المكتوب فى المصاحف المحفوظ فى الصدور المتعبد بتلاوته وذلك المتحدى بأقصر سورة منه للإعجاز.وأيضا فإن الصفة القديمة كادت لا تعلم إلا بآثارها ولا ندرك إلا بخواصها فالمتحدى بها تكليف بما لا يمكن الوقوف عليه وما لا يمكن الوقوف عليه لا يتحدى به لأنه

تكليف بما لا يطاق والتكليف بما لا يطاق قد رفعه الله تعالى تفضلا على الأمة

القول الثانى: أن إعجاز القرآن كان بسبب علمهم بوجه ترتيب لو تعلموه لأتوا بمثله . وعليه فإعجاز القرآن ليس ذاتيا فيه .وهذا قول باطل للإجماع بأن إعجاز القرآن وصف ذاتى مع توفر أسباب المعارضة عند القوم حين تحديهم ولو كان الأمر كما زعم قائل هذا القول لتعلموه أو حاولوا تعلمه لأن الحاجة إلى التعليم والمعارضة ماسة ولو حاولوا تعليمه لنقل إلينا لكنهم لم يحاولوا فدل ذلك علىى أن الإعجاز ليس مما يمكن إبطالة بالمعارضة بعد التعليم وليس هذا القول بأغرب مما قبله

القول الثالث: أن إعجاز القرآن وقع فى زمن التحدى أما الزمن الذى بعده ففى قدرة أهله الإتيان بمثله وهذا قول باطل كسابقة وقد بينا بطلانه بما تقدم ذكره من قول أبى بكر الباقلانى عند الكلام على وقوع الإعجاز البيانى للقرآن الكريم فعلا .

القول الرابع : أن إعجاز القرآن الكريم بسبب الصرفة عن معارضته والأتيان بمثله ومعناه أن إعجاز القرآن ليس ذاتيا فيه وإنما كان بسبب أن الله صرف القوم عن محاولة الأتيان بمثله فلم تتوجه همتهم إلى تلك المعارضة وتجريدهم منها وهذا القول بالصرفة قول باطل عقلاونقلا سنفرد له الكلام للرد عليه لأنه دان به الكثير من المعتزلة واشتهر دون ما عداه من الأقوال المرفوضة الباطلة واعلم أن القول بالصرفة قول وافد غريب على العقائد الإسلامية ، وفد إليها من وباء ترجمة العلوم فى عصر الترجمة ، مثله فى ذلك بدعه القول بخلق القرآن التى تصدى لها الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه يقول الأستاذ

الشيخ محمد البنا(١) (وقد مشأت هـذه الفرية عندما ترجمت العلوم الهندية والفارسية واليونانية فقام قوم من الذين يدعون الإسلام وقالوا إن القرآن ما أعجز العرب بذاته وإنما صرفهم الله أن يأتوا بمثله وقد كان عند الهنود كتاب يسمونه "الفيدا" وهو أشعار قالوا أن الناس يستطيعون أن يأتوا بمثله ولكنهم صرفوا عن ذلك فهى ليست فيها خواص ذاتية يعجز الناس عن محاكاتها إنما العجز من صرفهم عن هذه المحاكاة فانتقلت هذه العدوى إلى بعض المسلمين والعقائد لها عدوى ،كما تعدى من الهنود إلى بعض الفرق التى تقول بالتثليث فأن عقيدة التثليث أصلها هندية وانتقلت إلى غير الهنود بقيت إلى اليوم يدافع عنها بعض الناس).

وقد أفاد فضيلة الشيخ محمد أبو زهرة انتقال عقيدة التثليث هذه من الهنود إلى المسيحية فى محاضراته الديانات القديمة لطلاب معهد الدراسات الإسلامية عام ١٩٦٤/ ١٩٦٥(٢)

---

(١) فصول فى أصول الفقه للأستاذ محمد البنا ألقاها على طلبة معهد الدراسات الإسلامية ص ٢٢ ألقيت عام ١٩٦٤م

(٢)ذكر ذلك فى المجموعة الثانية من محاضرات المعهد لعام ٦٤/ ٦٥ الديانة المصرية القديمة ص ١٦ ، ١٧ نقلا عن البيرونى ولعل ذلك فى كتاب بيان ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة وانظر أيضا الموازنة الى ذكرها بين الديانة الهندية القديمة وما نقل عنها إلى المسيحية فى أرقام ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ مجموعة رقم ٣ .

ثالثا : أعدل الأقوال المقبولة وأعرفها والاستدلال على ذلك

نقد كثرت الأقوال المقبولة فى وجه الإعجاز ولكن ما ذكرته هو أهمها وأعدل ما ذكرته منها هو القول القائل أن إعجاز القرآن الكريم فى نظمه وأسلوبه وفى فصاحته وبلاغته وفى تعانق جملة وتناسب آياته فى درجة ليس لها مثيل وفى حالة لا تشرئب إليها أعناق الفحول من أرباب البلاغة والبيان وصيارفة القول والمعانى .

الاستدلال على أن هذا القول هوأعدل الأقوال وأعرقهافى الإعجاز

وإنما كان هذا القول أعدل الأقوال وأعرقها فى الإعجاز لما يأتى :

١- لأنه يتناسب مع ما جرت به سنة الله تعالى فى تأييد أنبيائه بالمعجزات التى تكون من نوع ما أشتهر فيه أقوامهم لتكون أبلغ فى الإعجاز وأتم فى التأييد فمن المعلوم أن المعجزة تكون أعظم فى التحدى والإعجاز إذا كانت من حنس ما أشهر فيه القوم وبرزوا، فأن المبارزة والمساجلة لا تكون الا فى شئ معروف للجميع مع المساواة الظاهرة بالإمارات بين جميع من يريد المساجلة والمبارزة فلا تكون مثلا بين عالم ميرز فى السباحة وجاهل بها ولا بين مشهور فى سباق الخيل وغمر لا يعرفه وبهذا يظهر بطلان قول من قال أن التحدى وقع بالكلام القديم أوبجهل العرب بوجه ترتيب لو تعلموه لما عجزوا عن المعارضة والمقابلة والمصاولة والمطاولة والقرآن الكريم جاء معجزة للرسول الكبرى ومتحديا ومعجزا لمن اشتهروا فى الفصاحة والبلاغة الذين ركضوا فى ميدان المعانى

والبيان وعرفوا كل ضروب القول وفنـوه الكـلام وأصبـح لديهـم جيـد الكـلام شعرا ونثرا طوع لسانهم فى كل مقام وكل ناد وهذا دليـل أى أن هـذا الوجـه هو الذى كان به الإعجاز وقطع اللجاج والعناد .وإنما هذا القـول مـع سـنة الله فى تأييد رسوله بالمعجزات لأن القرآن الكريم جـاء علـى غـرار معجـزة سـيدنا موسى عليه السلام حيث تحداهم بمعجزة اليد والعصا لأنها جاءت من حنس مـا اشتهروا فيه وهو السحر فى الصورة والمعجظة ليست سحرا وعلى غرار معجزة سيجنا عيسـى عليـه الصـلاة والسـلام حيـث تحداهـم بـإبراء الأبـرص والأكمـه وبإحياء الموتى وخلق الطير لأن ذلك كان من جنس ما اشتهروا فيه وهو الطـب وليست المعجزة من الطب .

٢- ويدل على أن هذا الوجه هـو الـذى وقـع بـه الإعجـاز أن الرسـول عليـه الصلاة والسلام حينما تحدى العرب بالقرآن الكريم لم يكن فيه حينئذ أخبار عن غيب أو إشارة إلى علوم كونية أو حديث عـن أمـم دارسـة أو قواعـد للتشـريع وليس فيه الا بلاغة فوق ضوق البشر وأسلوب حلّق فوق سماء كلامهم من بيـان وفصاحة لا يطمع فى مثلهما أو فيما يضاهيها طامع فتذوقـوا حلاوتـه وأدركـوا طلاوته واعترفوا بسبقه وعجزهم عن معارضته والإتيان بمثله .

فأسلوب القرآن وبلاغته هما اللذأن كان بهما التحدى ووقع بهما الإعجاز مـع علم القوم بمحسنات الكلام ووحوه البلاغة وعجزهم عن مساجلة عن مسـاجلة القرآن الكريم وجمال تعبيره وحسن تصويره هو الذى جعلهم يختارون فى الصد عنـه وفـى معارضتـه الحـرب ومفارقـة الأوطـان وانفـاق الأمـوال وبـذل المهـج والأرواح وسبى الذرارى والنساء وقطع الأرحام ومجابهة الحروب وويلاتها .

٣- وإنما كان هذا الوجه هو الأعرق فى الإعجاز لأنه إمتاز بجمال التصوير الفنى وجمال التعبير البيانى مع التناسق البديع والتجسيم للمعانى وهذا كله يكون ظاهرة خاصة شاملة للاسلوب القرآنى فى جميع أغراض القرآن الكريم وهى منبع السحر الحلال فى كتاب الله تعالى وهى التى يستولى بها القرآن الكريم على المشاعر والقلوب فتتأثر وتستجيب أو ترتعد وتعاند يقول الاستاذ سيد قطب(سحر القرآن العرب منذ اللحظة الأولى سواء منهم فى ذلك من شرح الله صدره للإسلام ومن جعل على بصره غشاوه وإذا تجاوزنا عن النفر القليل الذى كانت شخصية محمد صلى الله عليه وسلم وحدها هى داعيتهم إلى الإيمان فى أول الأمر كزوجه خديجة وصديقه أبى بكر ومولاه زيد وأمثالهم فإننا نجد القرآن كان العامل الحاسم أو أحد العوامل الحاسمة فى إيمان من آمنوا أوائل أيام الدعوة يوم لم يكن لمحمد صلى الله عليه وسلم حول ولا قوة ويوم لم يكن للإسلام قوة ولا منعة .وقصة إيمان عمر ابن الخطاب وقصة تولى الوليد ابن المغيرة نموذجان من قصص كثيرة للإيمان والتولى وكلتاهما تكشفان عن هذا السحر القرآنى -الحلال - الذى أخذ العرب منذ اللحظة الأولى وتبينان فى اتجهين مختلفين على مدى السحر القاهر الذى يستوى فى الإقرار به المؤمنون والكافرون (١)

٤- ويدل على عظمة هذا الوجه وأنه الأصل فى الإعجاز قوله سبحانه حاكيا قول بعض الكفار ﴿ لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ (٢)

(١) التصوير الفنى فى القرآن لسيد قطب ص ٩

(٢) فصلت -٢٦

إذ لم يقولوا هذا القول إلا لإحساسهم بعظمة القرآن وروعته وبراعته وفصاحته وهيمنته على الأرواح والقلوب . ويدل على ذلك أيضا قوله سبحانه ﴿وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ (١)

وقوله ﴿أن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعاً﴾ (٢) وإن شئت فاسمع قول الله سبحانه عن الذين يخشون ربهم كيف يتأثرون بسماع القرآن الكريم ﴿الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾(٣)

هذا هو تأثر القرآن الوجدانى ومسه الروحى وهو شئ نابع من ذاته بفضل خصائصه الجليلة والبلاغية فى التصوير والتعبير وهذا هو السحر الحلال الذى إشتمل عليه القرآن الكريم والذى استمد مادته من جمال البلاغة وروائق الفصاحة وتعانق الجمل وتناسب الكلمات والآيات ورصانة التعبيروقوة التأثير الذى لا تشرئب إليه أعناق فحول البلغاء إلا اندقت وكيف لا والفرق بين بيان القرآن وبيانهم واسع والبون شاسع ففرْق بين الثريا و الثرى وهو منهم أبعد من العيوق وأعز من بيض الأوق ومهما سما أسلوب البلاغة جاء فى سماء البلاغة وورق ومهما تربع على عرش البيان و ارتقى فهو بالنسبة لبلاغة للقرآن وبيانه

---

(١) المائدة -٨٣

(٢)الإسراء . ١٠٧، ١٠٨ ، ١٠٩

(٣)الزمر.- ١٣

كالسرور بالإجراء وبالخلاء والمضاهى بقبسة الخفى ذكاء وابن ذكاء وكالمزاحم بغير عود والمكاثر يرذاده الجود.

وابن اللبون إذا مالز فى قرن   لم يستطع صولة البزل التناعيس(١)

والخلاصة مما تقدم:

أن وحه إعجاز القرآن الكريم الذى تحمله صغار السور وكبارها والذى كان به القرآن يستوى على المؤمن والكافر على حد سواء وليس فيه أخبار عن غيب ولا إشارة إلى علوم كونية كان فى نظمه وأسلوبه وفى فصاحته وبلاغته وفى تعانق جملة وتناسب آياته مع التصوير الفنى والتعبير البيانى الرائع وبهذا بهر القرآن الكريم الدنيا كلها.وأعجز العالمين جميعا وسبحان من أنزله حجة لرسولة ومعجزة لخاتم خلقه وخليله ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾

(١) الرد على النحاة لابن مضاء ص ٧٦ تحقيق محمد إبرهيم البنا (ابن الليون) ولد الناقة إذا كان فى العام الثانى وصار لها لبن – لز – شد والقرن الحبل والبزل جمع بازل وهو ما بلغ التاسعة والفناعيس جمع فنعاس الجمل الضخم العظيم – تحقيق محمد ابراهيم البنا . وعن تحقيقه أيضا فيما قبل البيت (القبس شعلة نار تقبس من معظم النار – ذكاء الشمس غير منصرفة . وابن ذكاء – الصبح ، والعود – الجمل المسن .الرذاذ المطر الضعيف ، الجود : المطر الواسع الغزير.

رابعا: القول بالصرفة وبيان بطلانه والرد عليه

القول بالصرفة معناه : أن الله سبحانه صرف العرب وعقولهم وهممهم عن معارضة القرآن الكريم والإتيان بمثله ولو لا ذلك لعارضوه وأتوا بمثله ومعنى ذلك أن إعجاز القرآن الكريم ليس ذاتيا فيه وينسب هذا القول إلى ابراهيم بن سيار النظام وتكاد تجمع الكتب التى تتكلم عن الإعجاز على نسبة هذا القول اليه ولكن النظام ليس أول من قال به فلقد قال به عيسى بن صبيح المزدار قبله كما قال به الجعد بن درهم مؤدب مروان بن محمد أخر الخلفاء العباسين وقد نسب السيوطى فى الإتقان هذا القول إلى النظام ، والنظام هذا هو أبو اسحق ابراهيم بن النظام أحد رؤوس المعتزلة وإليه تنسب فرقة النظمية وهو شيخ الجاحظ وعنه أخذ الجاحظ مذهبه فى الاعتزال توفى سنة بضع وعشرين ومائتين . ذكر هذا عن النظّام الشيخ عبد الكريم الخطيب فى كتابه (إعجاز القرآن) (١) ثم قال (وقد قال بهذا القول الشريف المرتضى وعدّ الصرف فى ذاته أمرا خارقا للعادة يشهد للرسول وصدقه كما تشهد سائر المعجزات وقد ذكر الخطيب أيضا أن ابن سنان الخفاجى قد قال بالصرفة . فها نحن نرى أن السيوطى وغيره ينسب هذا القول إلى النظّام ومع هذا فان الشيخ على الغمارى صاحب كتاب (حول إعجاز القرآن) يشك فى نسبة هذا القول إلى النظّام أو إلى عيسى بن صبيح المزدار حيث يقول "ومن الظلم البالغ أن ننسب إلى واحد من هؤلاء المتكلمين المخلصين فى الدفاع عن القرآن أنه لا يقول بإعجاز

---

(١) ص ٣٣٩ وما تليها .

ولوأنه قال ما دخل في حسابنا ولا في حساب أحد ممن عاصروه " (١) الخ وعلى كل حال فالقول بالصرفة قد قيل ، وسواء قد قال به النظّام أو غيره فهو قول باطل (٢) ومن حلية قبول عاطل ، وبطلانه ثابت بالفعل والنقل وإليك دليل بطلانه والرد عليه فيما يأتي :

١- قوله تعالى ﴿ قل لئن إجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم وتوفر أسباب المعارضة لديهم ولو سابرا القدرة كما يقول أصحاب القول بالصرفة ما كان لاجتماعهم فائمة ولا للتحدى بهم فائدة لأن اجتماعهم حينئذ بمنزلة اجتماع الموتى وليس عجز الموتى مما يحتفل بذكره وكيف يتحدى المولى سبحانه الأنس والجن وهم عزل من سلاح النزال والمعارضة بعد سلب قدرتهم على ذلك أو صرف همتهم عنه ، سبحانك هذا بهتان عظيم

(١) ص ٦٤ حول إعجاز القرآن.

(٢) يقول الرافعي في (إعجاز القرآن عنه وهو عندنا رأى لو قال به صبية المكاتب وكانوا هم الذين [illegible] وابتدعوه لكان ذلك مذهبا من تخاليطهم في بعض ما يحاولونه إذا عمدوا إلى القول فيما لا يعرفون ليوهموا أنهم قد عرفوا وعلى الجملة فأن القول بالصرفة لا يختلف عن قول العرب فيه إن هو إلا سحر يؤثر وهذا زعم رده الله على أهله وأكذبهم فيه وجعل القول به ضربا من العمى (أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون) فاعتبر ذلك بعضه ببعض فهو كالشئ الواحد "

٢- الإجماع الذى انعقد على أن القرآن معجز بذاته لما فيه من الفصاحة والبلاغة الذين هما فوق مستوى البشر وأعلى من طاقتهم أكبر دليل لإبطال قولهم والرد عليهم .

٣- لو كان وجه الإعجاز هو الصرفة لما استعظموه لبلاغة القرآن التى بهرتهم وخضعت رقابهم لعظمتها وعنت جباههم لجلالتها ولما سجد من سجد منهم عند سماع آياته للسجع والنظم كما أجاب عندما مثل عن ذلك ولو كان الأمر كما يدعى أصحاب الصرفة لكان العجب حينئذ من عجزهم عن المعارضة المألوفة لهم لا من بلاغتة وفصاحته .

٤- لو كان القرآن الكريم معجزا بالصرفة كما يدعى أصحاب الصرفة لما كان له فضيلة على غيره من الكلام البليغ ولما كان بذاته معجزا وإنما كان بالصرفة معجزا وهذا باطل للإجماع على كلام الله تعالى بأقصر سورة منه للإعجاز .

٥- إذا كان القرآن الكريم معجزا بسلب القدرة عن معارضته كما يدعى أصحاب القول بالصرفة فلا يخلو الحال من أمرين :

"أحدهما" أن يكون قد بقى سلب القدرة ملازما للناس بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم وتقرير إعجاز القرآن.

"ثانيهما" أن يكون قد زال هذا السلب والعجز أى سلب القدرة على المعارضة والعجز عنهما فإن كان الأول فلا معنى لبقاء سلب القدرة على المعارضة والعجز عنها بعد تقرير العجز وثباته وثبوت النبوة وصحة الرسالة.

وإن كان الثانى فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين أو بمثل أقصر سورة منه إن كانوا قادرين وحينئذ ستيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون.

٦- النص الذى ذكرته عن الجاحظ عند بيان وقوع الإعجاز البيانى للقرآن الكريم فعلا أكبر دليل على أن الإعجاز كان ذاتيا فى القرآن الكريم وأن العرب كانت لديهم وسائل المعارضة موفورة ولكنهم عرفوا أنهم عاجزون عن الإتيان بمثله لأنه فوق مستواهم فى الفصاحة والبلاغة بكثير ولو عارضوه لتعرضوا للسخرية والاستهزاء وطيش الرأى وشدة النزق وهم لا يرضون هذا لأنفسهم لإجماعهم جميعا على أن القرآن الكريم حلق فى سماء البلاغة واستولى على عرش البيان .وأنى لهم مطاولته ومعارضته .

وأقول لاصحاب القول بالصرفة ها هى الدنيا كلها أمام عظمة بلاغة القرآن الكريم وجلال بيانه العظيم هل فى وسعها أن تقابل وتعارض وتحاول وتصاول وتناقص وتنازل القرآن الكريم كلا فإن عجزها واضح أوضح من الشمس فى رابعة النهار وحق القائلين بأن إعجاز القرآن الكريم ذاتى من خصائصه ومميزاته اللازمة له أن يقولوا لأصحابه القول بالصرفة .

خذ ما رأيت ودع شيئا سمعت به   فى طلعة البدر ما يغنيك عن زحل

قول آخر فى معنى الصرفة والرد عليه :

هذا وقد قالت طائفه ممن قال بالصرفة :إن معنى الصرفة سلب الله الرغبة من نفوس من تحداهم بحيث لم يبق لهم ميل أو أدنى اتجاه إلى المقابلة والمعارضة وبذا حال سبحانه بينهم وبين الإتيان بمثله وهذا رأى باطل مردود بأنه رأى فرضى لم يقم عليه دليل بل الدليل قائم على نقيضه لان حوافز الميل والرغبة إلى المعارضة موفورة فرسول الله صلى الله عليه وسلم لما جاءهم بما جاءهم به من عند الله تحداهم بالقرآن الكريم وأظهر بطلانه دينهم وسفّه عقولهم وأخلاقهم وعاب آلهتهم وكفّرهم وكفّر مَن مضى من آبائهم وأجدادهم فأثارهم أيما إثارة وأقضّ مضاجعهم وجنوبهم كل ذلك حافز وداع إلى المعارضة إن كانوا يستطيعونها وكيف لا يكون لهم رغبة وميل إلى إبطال القرآن الكريم ودعوته بمعارضته والإتيان بمثل سورة من سورة وهم الذين بذلوا النفس والنفيس والغالى والرخيص والطارف والتليد والوالد والوليد وقطعوا الأرحام ورضوا بقتل الذرية والنساء وحاصروا النبى وآله صلى الله عليه وسلم فى الشِعْب ثلاث سنين وقاطعوه وهو والمسلمين وحاولوا قتله صلى الله عليه وسلم بكل وسيلة لإبطال دعوته وقرآنه ورسالته .

والعجب ممن قال بهذا المعنى للصرفة إذ كيف يتصور عاقل أن العرب لم يكن لهم ميل إلى المعارضة مع الحوافز الداعية إلى الرغبة فيها بل المحتمة لها من مثل ما نالهم من الهزائم والقتل والسبى ووقف التجارة والخسائر فى الغزوات المختلفة ولكيف لا تكون لهم رغبة فى المعارضة مع كل هذا أليس أجدى لهم وأحسن أن

يتعاونوا جميعا ويعارضوا القرآن بمثل سورة منه وبذا تنهار الدعوة ويتم لهم ما أرادوا مع صيانة الأنفس والأرواح والأموال والأفلاذ. فالحق إن القول بالصرفة باطل عقلا ونقلا تخالف لإجماع المسلمين قبل ظهور القائلين به وكفى بالإجماع دليلا على فساده وبطلانه والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

خامسا : الإعجاز العلمي للقرآن الكريم وأهميته :

١- دعوة القرآن الكريم إلى التأمل فى الأنفس والأفاق :

نزل القرآن الكريم على الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الناس إلى الإيمان بالله وتوحيده ونبذ المعبودات الباطلة وذلك عن طريق النظر في الأنفس والأفاق والتأمل في الآيات الكونية التي تدل على وحدانية الله تعالى وربوبيته والإستفادةمن البحث والنظر في أسرار الكون وسنن الله الكونيةليقوده ذلك النظر إلى توحيد الله سبحانه وليستفيد من ذلك في دنياه والآيات الكونية كثيرة جدا في القرآن الكريم وهي مجال الإعجاز العلمي ويدرك الإعجاز العلمي من إشارة القرآن الكريم إلى ذلك الإعجاز إشارة خاطفة لا بالعرض والتفصيل للنظريات العلمية لانه كتاب دين وهداية لا كتاب علم ونظريات والتقدم العلمي يظهر منه أن مدى ما تحمله آيات القرآن الكريم من إشارة إلى ما نتج من العلم الحديث.

ولما كان القرآن الكريم لا يهمل جانب الدين ولا جانب الدنيا فقد حث على البحث والنظر والتأمل في سنن الله الكونية وحث على الاستفادة منها من طريق دلالتها على الله تعالى وعلى الاستفادة منها من طرفي طرفيها يستقيم حال الدين والدنيا حال العقيدة والحياة ومن هذا نعلم أن كتاب الله تعالى دعا

حال الدين والدنيا حال العقيدة والحياة ومن هذا نعلم أن كتاب الله تعالى دعا إلى العلم والبحث والانتفاع بالمشاهدة العلمية وبالملاحظة والتجربة وكما تقوم أحكام الدين على القياس النظرى تقوم أيضا على المشاهدة العلمية.

يقول الاستاذ عيسى عبده (القرآن الكريم أول كتاب دعا إلى المشاهدة والتجربة العلمية ومن ثم لا تقوم أحكام الدين الإسلامى على القياس وحده كما يدعى بعض الكتاب ومنهم (برتراند رسل) فى كتابه (النظرة العلمية) وتكون الملاحظة العلمية أسلوبا مقررا للبحث ولا فضل لأحد من الناس فى تقريره وإنما الفضل للقرآن وحده ثم يقول (بتقديم البحث العلمى على أسس من المنطق والتجربة العلمية زادت معانى القرآن الكريم وضوحا وإن زادت بثبات الحكم أو القاعدة التى تقررها وذلك على خلاف المعرفة التى يصل إليها الإنسان فى تحول وتطور(١)

أهمية الإعجاز العلمى

عرفنا أن المعجزة الكبرى التى تحدى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم هى القرآن الكريم تلك المعجزة الخالدة على مر العصور والدهور وإن وجه الإعجازفى القرآن الكريم هو [illegible] أسلوبه وفصاحة [illegible] وتناسب آياته مع خصائص أسلوبه البلاغية وبلوغه فى كل ذلك درجة لا تبارى ولا تحاكى لسموها وتحليقها فوق سماء بلاغة البشر ولجمال بيانها وقد

---

(١) ص ٢، ٣ القرآن والدرسات الإقتصادية محاضرات معهد الدراسات الإسلامية عام ١٩٦٤م

عرفنا أيضا أن هذه المعجزة القرآنية هى المناسبة للزمان الذى بعث فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وللقوم الذين بعث فيهم ولقد كان عجز العرب المعاصرين لنزول القرآن الكريم دليلا على عجز غيرهم من الأمم وعلى عجز من جاء بعدهم من العرب أو غيرهم من باب أولى .

الإعجاز البيانى فى القرآن الكريم كان فيما مضى وقت التحدى عند نزوله يعرفه المؤمن والكافر ذوقا وادراكا ووجدانا لأن البلاغة العربية كانت عند العرب وراثة وسليقه، أما الآن فلا يعرف ذلك الإعجاز فى القرآن الكريم بنفس القدر الذى كان يعرف عند الاقدمين إذ البلاغة أصبحت علما يدرسه الدارسون وصناعة يتعاطاها المتعلمون بيد كثرة العامية والدخيل على اللغة العربية واختلاط العرب بغيرهم وتفشى اللحن فيهم حتى أصبحت العامية الدارجة هى لغة التخاطب المتغلبة على الألسنة حتى فى دور العلم ودروس العربية. ولما كان هذا حال الأمة العربية والإسلامية لم يكن للتحدى بالبلاغة محل بعد ثبوت التحدى والإعجاز لفطاحل البلاغة والبيان إذ كيف يتحدى بها من لا يجيد أصولها ويعانى من محاولة فهمها دراسة وصناعة ولا يكاد يدرى كيف يدير لسانه عليها حتى ممن يدرسها دراسة متخصصة وعلى كل حال فالإعجاز البيانى ملازم لكتاب الله تعالى دائما وأبدا ملازمة الظل للشخص فراية التحدى للقرآن الكريم مرفوعة بيد الإعجاز البيانى منذ نزوله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهى الأن مرفوعة أيضا بيد الإعجاز العلمى فى عصر تقدم المعرفة الإنسانية فى شتى مناحيها لأن كتاب الله تعالى لا يخلق عن كثرة الرد ولا نتقضى عجائبه ولا يضيق ذرعا بالنظريات العلمية وتقدم المعرفة

والاكتشافات الإنسانية ومن هنا ندرك أهمية الإعجاز العلمى لكتاب الله تعالى لأنه يكون به التحدى فى دنيا العلم وعصر الابتكار والنظريات. والإعجاز العلمى باب واسع دلف إليه العلماء على اختلاف اتجاهاتهم فوجدوا فيه السبق فيما عالجوه وأوغلوا فيه ولقد كان هدفهم ساميا وقصدهم شريفا عاليا حيث أرادوا توجيه الخلق إلى ما فى القرآن الكريم من إعجاز علمى تقوم به الحجة على دنيا البلاغة والبيان ويتجلى الإعجاز العلمى للقرآن الكريم فيما بهر به علماء القانون والتشريع من تشريعات سامية شاملة لشتى شئون الحياة والمعاملات الإنسانية حيث شرع للأسرة قانونها والمجتمع الإسلامى نظامه وسلوكه وللمجتمع الإنسانى الدولى علاقاته فى السلم والحرب وبين للفرد والجماعة ما يجب علي كل منهما نحو الآخر ومايجب على كل منهما فى العبادة والتعامل مع الله والناس وذلك إعجاز علمى فى ميدان التقنين بآيات التشريع كما بهر بأدابه وأخلاقه وسماحته علماء الأخلاق قديما وحديثا ولقد جاء فى شتى الميادين بما لم تأت به شريعة سابقة .لقد عرف الدين المسيحى التسامح فكان له فى ذلك شعار معروف " من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر " وأما القرآن الكريم فقد رغب فى العفو والتسامح والصفح والتصالح وجعل ذلك شرعة طيبة وهذب هذا الخلق الكريم وشذب تلك الفضيلة وصقلها وجعلها وسطا بين الإفراط والتفريط فناصر المجنى عليه وجعل الحق فى القصاص أو العفو فهو إن شاء اقتص وأخذ حقه ليرفع عن نفسه المذلة وإن شاء عفا وتسامح مع قدرته على القصاص فيظهر بذلك فضله وسمو قدره.وكان ذلك أفضل لأنه قد تفرض الظروف على الإنسان ألا يذل ولا يستكين ولا يقيم

على ضيم يراد به ولا يسكت على أذى يلحقه وقد لا تسمح بالعفو نفسه فإذا كان صاحب الحق فى القصاص أو العفو هدأت نفسه وسكنت ثائرته وحميته وزال من قلبه كل حقد وضغينة وغيظ. وقد تكون دواعى التسامح والعفو قوية فيكون التجاوز عن أخذ الحق أحمد وأحسن ووضع الشئ فى نصابه أولى من إهماله وأفضل قال تعالى ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾(١) وقال سبحانه ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين . واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تكُ فى ضيق مما يمكرون ﴾(٢) وقال سبحانه آمرا بقول الحسن من القول للناس جميعا ﴿وقولوا للناس حسنا﴾(٣) وقال عز من قائل﴿والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون﴾ (٤) وحسبنا دليلا على الإعجاز الخلقى آية ﴿ خذ العفو وامر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾ فلقد جمعت على إيجازها كل أسس الدستور الأخلاقى القويم حتى قال بعض العلماء ليس فى القرآن الكريم آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية وكما عنى القرآن الكريم بالجانب الروحى الأخلاقى

---

(١) الأعراف ١-٩٩

(٢) النحل ١٢٦ - ١٢٧

(٣) البقرة ٨٣

(٤) الشورى ٤٠

فإنه كذلك عنى بالجانب المادى من ذات الإنسان(١) أى بجسمه وبدنه فنهى عن الافراط فى الأكل والشرب الأمر الذى يترتب عليه الضرر والمرض فقال ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ ذلك لأن الإسراف فى الأكل يولد التخمة والأمراض المختلفة التى تنشأ عنها الحاجة إلى العلاج الذى يمكن الاستغناء عنه بالاقتصاد فى الأكل والشرب بدون إسراف وقد صحح المالكية كما فى أحكام القرآن لابن العربى(٢) حرمة مازاد على الحاجة فى الطعام والشراب. وقد وضح صلى الله عليه وسلم الآية فقال (ما ملأ أدمى وعاء شرا من بطنه بحسب ابن أدم لقيمات يقمن صلبه فإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه) أخرجة الترمذى من حديث المقداد بن معديكرب ولقد قال القرطبى بعد أن ذكر هذا الحديث : قال علماؤنا لو سمع بقراط هذه القسمة لعجب من هذه الحكمة. ويذكر أن الرشيد كان له طبيب نصرانى حاذق فقال لعلى بن الحسين ليس فى كتابكم من علم الطب شئ والعلم علمان علم الأديان وعلم الأبدان فقال على قد جمع الله الطب كله فى نصف آية من كتابنا فقال له ما هى فقال قوله عز وجل ﴿ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾(٣) فقال النصرانى ولا يؤثر عن رسولكم شئ من الطب؟ فقال على : جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الطب فى ألفاظ يسيرة قال ما هى ؟ قال : المعدة بيت الأدواء والحمية رأس

---

(١) انظر فى هذا قصة أدم عليه السلام فى القرآن الكريم وما دار حولها من شبهات عند الكلام على الإعجاز العلمى فى قصة أدم عليه السلام

(٢) ج ٢ ص . ٧٧١

(٣) الأعراف ٣١

كل داء وأعط كل جسد ما عودته فقال النصرانى "ما ترك كتابكم ولا نبيكم لجالينوس طبا "(١) وهذا الذى ذكره القرآن الكريم من العناية بصحة الأبدان نوع من الإعجاز العلمى ومن قبيل هذه الآية من حيث الإعجاز العلمى قوله سبحانه ﴿ يسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطْهرْن فأذا تطهرن فاتوهن من حيث أمركم ا لله ، إن ا لله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾(٢) والأمر بالاعتزال للحائض لما أن الحيض أذى والأذى يجب إجتنابه فالحائض فى حالة مرضية ودم الحيض ملوث بالجراثيم وحامل لها فنهى سبحانه عن مباشرة الحائض لما يتسبب عن ذلك من الضرر بالزوج. وهذا كله جانب من الطب الوقائى عرفه الإسلام وسبق إليه عالم الأطباء هذا وقد سبق وأشار القرآن الكريم إلى الطب التشريحى فى قوله تعالى ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك ا لله أحسن الخالقين﴾(٣) كما أشار إلى ذلك.

---

(١) ص ٢٦٦٨ - القرطبى كتاب الشعب وقد ذكر الغزالى فى الجزء الثالث من الأحياء هذا الحديث بلفظ البطنة أصل الداء والحمية أصل الدواء وعودوا كل جسد ما اعتاد .وقد قال العراقى عنه فى كتابه المغنى عن حمل الأسفار : لم أجد له أصلا.

(٢) البقرة. ٢٢٢

(٣) المؤمنون.١٢- ١٣- ١٤

أيضا فى قوله سبحانه﴿أيحسب الإنسان ألن يجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوى بنانه ﴾(١) فإن العلم الحديث أثبت أن تجاعيد الأنامل وخطوطها لا يمكن أن يتساوى فيها رجلان لذا يستعين رجال الشرطة والقضاء على معرفة الجانى ببصمات اليد على الزجاج بعد مقارنتها ببصمات المتهمين(٢) فالقدرة على تسوية البنان من أعظم دلائل القدرة على جمع عظام الموتى وبعثهم يوم القيامة، وإليك نماذج من الإعجاز فى القرآن الكريم:

١- الإعجاز العلمى للقرآن الكريم فى علم التاريخ

كشف علم التاريخ للقرآن الكريم معجزة تاريخية فى قوله تعالى ﴿وقالت اليهود عزير ابن الله ﴾ حيث تبين من حقائق التاريخ الذى تضمنته الآية ما لم يكن أحد يعلمه قبل عصر نزول القرآن الكريم ذلك لأن اسم عزير لم يكن معروفا عند اليهود بعد دخولهم مصر واختلاطهم بأهلها ومعرفة عقائدهم ووثنيتهم فعزيز هو (أوزيريس) كما ينطق به الإفرنج أو (عوزر) كما نطق به قدماء المصريين وكان قدماء المصريين يعتقدون فى (أوزيريس) أنه ابن الله وذلك بعد تركهم التوحيد وعبادتهم الشمس وقد انتقلت هذه العقيدة إلى اليهود بعد أن استحسنوها واليهود لا يمكن أن يدعوا أبدا أن اسم عوزر كان معروفا عندهم قبل اختلاطهم بقدماء المصريين(٣)

---

(١) القيامة. ٣-٤.

(٢) انظر الإعجاز الطبى فى القرآن للدكتور الجميلى.

(٣) مناهل العرفان فى علوم القرآن ص ٣٨٢ والتى تليها ج ٢.

٢-الإعجاز العلمى للقرآن الكريم فى علم الطب

شرع الله تعالى الصيام لعباده ليتعبدهم به ولما فيه من فوائد روحية وأخلاقية أفاض فى بيانها علم الشريعة والتصوف وفوائد طبية كثيرة تفيد كثيرا فى حالات علاجية وحالات وقائية كما ذكر ذلك الدكتور عبد العزيز اسماعيل باشا فى مجلة الأزهر الغراء فى مقال تحت عنوان:(الطب وصيام شهر رمضان) وقد أثبت الطب الحديث أن الصيام أهم علاج فى الحالات الآتية:

١- اضطرابات الأمعاء المزمنة المصحوبة بتخمر فى المواد الزلالية والنشوية وخصوصا عند عدم شرب الماء بين الأكلتين وأن تكون بين الأكلة والأخرى مدة طويلة كما فى صيام رمضان ويمكن أخذ الغذاء المناسب حسب حالة التخمر وهذه الطريقة هي أنجح طريقة لتطهير الأمعاء.

٢- زيادة الوزن الناشئ من كثرة الغذاء وقلة الحركة فالصيام أنجح من كل علاج مع الاعتدال وقت الإفطار والإكتفاء بالماء فى السحور.

٣- زيادةالضغط الذاتى وهو أخذ فى الانتشار بازدياد الترف والانفعالات النفسية ففى هذه الحالة يكون شهر رمضان نعمة وبركة خصوصا إذا كان وزن الشخص أزيد من الوزن الطبيعى لمثله.

٤- البول السكرىوهو منتشر انتشار الضغط ويكون فى مدته الأولىوقبل ظهوره مصحوبا غالبا بزيادة الوزن فهنا يكون الصيام علاجا نافعا إذ السكر يهبط مع قلة السمن ويهبط السكر فى العادة بعد الأكل بخمس ساعات إلى أقل من الحد الطبيعي فىحالات البول السكرى الخفيف وبعد عشر ساعات إلى أقل من الحد الطبيعى بكثير ولا يزال الصيام مع بعض ملاحظات فى الغذاء أهم

علاج لهذا المرض حتى بعد ظهور الأنسولين خصوصا إذا كان الشخص يزيد على الوزن الطبيعي و لم يكن هناك علاج لهذا المرض قبل الأنسولين غير الصيام.

٥- التهاب الكلي الحاد والمزمن بارتشاح وبورم .

٦- أمراض القلب المصحوبة بارتشاح وتورم .

٧- التهابات المفاصل المزمنة خصوصا إذا كانت مصحوبة بسمن كما يحصل عند النساء غالبا بعد سن الأربعين وقد شوهدت حالات يفيدها الصيام فى شهر رمضان فقط أكثر من إفادة العلاج بالكهرباء والحقن والأدوية وكل الطب الحديث ورب سائل يقول : ولكن الصيام فى كل هذه الحالات يحتاج إلى إرشاد طبيب فى كل مرض على حدة والصيام الذى كتب على المسلمين إنما كتب على الأصحاء وهذا صحيح ولكن فائدته للأصحاء هى الوقاية من هذه الأمراض وخصوصا الأمراض التى مر ذكرها تحت رقم ١، ٢، ٣، ٧(١)

٣- الإعجاز العلمى فىعلم الإجتماع

من القواعد المقررة فى علم الإجتماع أن الجماعات كالافراد فى أسباب قوتها وضعفها وفى عوامل وجودها وانحلالها وأن دعاة الإصلاح لا يستطيعون أن يؤثروا فى المجتمع لمجرد رأى يبدولهم فى اصلاحه وإنما يكون اصلاحة وتحوله إلى

---

(١) مناهل العرفان ص ٣٨٤ وما يليها . وقد ذكر هذا الأستاذ الجميلى فى الإعجاز الطبى فى القرآن عن عالم مسيحى هو الدكتور شمخا سيرى أخذ من كتاب الدين والصوم للحاج عباس كرارة .

الحالة التى يريدونها إذا أقتنع أفراد ذلك المجتمع بضرورة التحويل والإصلاح وسداد رأى المصلحين ووجوب العمل به وهنا يبدو ميل جديد إلى التحويل ورغبة ملحة للانتقال إلى وضع أحسن وأنسب فتتضافر الأفراد والجماعات على العمل لوجوب الإصلاح والتغيير وهذا ما سبق إليه القرآن الكريم منذ أكثر من ألف عام حيث قرر هذه القواعد فى قوله سبحانه ﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾(١) لأن معنى الآية أن الأمة التى تريد أن يحول الله عنها حالا لا ترضاه لمجتمعها يجب عليها أن تغير نفسيتها أولاً فإن فعلت حول الله عنها ما تكره ووجه إليها من نعمه ما تحب وهذا وحدة معجزة علمية للقرآن الكريم وكذلك لا يسلب الله قوم نعمة وحالة طيبة حتى يسيئوا إلى أنفسهم بالمعاصى والبعد عن أسباب الفلاح والخير وهذا المعنى للآية هو ما يقرره علم الإجتماع فالآية تفيد بأن الله لا يغير حال الأمة من خير إلى شر أومن شر إلى خير إلا إذا استحسنت الحالة التى تغاير ما هى عليه وأخذت بجد تعمل فى أسباب التغيير.

قال فى الجلالين فى تفسير الآية (إن الله لا يغير ما بقوم) لا يسلبهم نعمتة (حتى يغيروا ما بأنفسهم من الحالة الجميلة بالمعصية) وقال الصاوى محشيا على ذلك "قوله من الحالة الجميلة أى وهى الطاعة والمعنى أنه جرت عادة الله أنه لا يقطع نعمة عن قوم إلا إذا بدلوا أحوالهم الجميلة بأحوال قبيحة وبمعنى هذه الآية

---

(١) ١١- المائدة.

قوله تعالى ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾(١) وقوله عليه الصلاة والسلام (إذا رأيت قسوة فى قلبك وحرمانا فى رزقك ووهنا فى بدنك فاعلم أنك تكلمت بما لا يعنيك فالنعمة تأتى من الله بلا سبب وسلبه يكون بسبب المعاصى)"(٢) وإدراك سر التغيير فى المجتمع ومعنى الآية يجعلنا ندرك إدركا جازما سر تنبيه القرآن الكريم إلى وجوب الدعوة إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.وقد قال سبحانه فى بيان أن الأمم والجماعات كالأفراد لها أجالها التى تنهى عندها دون تقدم أو تأخر ﴿كل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾(٣) وما قررته الآية هو ما اهتدى إليه علماء الإجتماع بعد سبق القرآن إليه بأكثر من ألف عام وقد ذكر ابن خلدون هذا فى المقدمة ولقد أثبت القرآن الكريم أيضا أن للاجتماع نواميس ثابتة لا تتغير قبل أن يتخيلها أعلم علماء الارض فقال ﴿سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا﴾وتعيين هذه النواميس والبحث عما خفى منها هو الشغل الشاغل لعلماء الإجتماع .وهذا لا شك سبق علمى للقرآن الكريم يدل على إعجازه وإنه ليس من عند البشر وسبحان من أودع فى كتابه دلائل صدقة وأدلة إعجازه وبراهين رسالة رسول الله صلى الله عليه

---

(١) الأنفال. ٥٣

(٢) ج ٢ ص ٢٠٨ حاشية الصاوى على الجلالين .

(٣) يونس ٤٩

وسلم والإعجاز العلمى للقرآن الكريم وإثباته وإظهاره مـن أهـم المهمـات لأنـه وسيلة من وسـائل الدفـاع عـن كتـاب الله تـرد بـه أبـاطيل المضلـين وترهـات المبطلين لأنه نزل على رسول الله النبى الأمى صلى الله عليه وسلم وبين قـوم لا صلة لهم بحضارة العالم فى ذلك الوقت وما كان فى ذلك الوقت للأمم شئ مـن هذه العلوم الحديثة التى ضرب فيها القرآن الكريم بسهم وافر وما ظهـرت هـذه العلوم الإنسانية الحديثة إلا بعد نزول القرآن الكريم بقرون .

٤- الإعجاز العلمى للقرآن الكريم فى مجال التحليل الكيميائى

أثبت علم التحليل الكيميائى أنك لو أخذت قطعة من الأرض الخصبة ترابـا أو طينا وأجريت عليها عملية التحليل الكيمياتى لوجدتهـا تتكـون مـن ستة عشر عنصرا هى نفس العناصر التى يتكون منها جسم الإنسان مع اتحاد النسبة المئويـة بين العناصر فى الطين وجسم الإنسان.

وقد ثبت بعلم التحليل الكيميائى هذا سـبق القـرآن الكريـم وإعجـازه فـى هـذا العلم فقد أخبر سبحانه أن أدم عليه السلام قد خلقه جل جلالـه مـن تـراب ثـم قال له كن فيكون(١) وقال﴿إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا مـن طـين﴾ (٢) وهذا إعجازعلمى للقرآن الكريم فى مجال التحليل الكيميائىتحمله قصة أدم عليه السلام ولقد بين الأستاذ البهى الخولى ذلك الإعجـاز العلمـى أتم بيـان فـى كتابه.

---

(١) آل عمران

(٢) ٧١- ص

" أدم عليه السلام " فقال تحت عنوان (عناصر الطين في الإنسان) أما أنه خلقه من طين أو تراب فذلك ما يفيده الواقع وتثبته التحاليل الكيماوية فلو أنك أخذت قبضة من تراب الأرض الخصبة وأجريت عليها عمليات التحليل الكيماوى لوجدتها تتركب من ستة عشر عنصرا هى نفس العناصر التى تتركب منها تربة الأرض ثم ذكر هذه العناصر ونسبتها الواحدة فى كل من جسم الإنسان وتربة الأرض. وهذا أن دل على شئ فإنما يدل على الإعجاز العلمى للقرآن الكريم الذى يدل على صدق رسول الله صلى عليه وسلم فى دعواه الرسالة وعلى أن القرآن الكريم كتاب الله المعجز الذى نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم معجزة له وشريعة صالحة لكل زمان ومكان. وهذا الذى تقدم من الإعجاز قل من كثر وقطرة من بحر وسطر من قطر وعن الإعجاز العلمى فى القرآن الكريم .

يقول الأستاذ الدكتور جمال الدين الفندى تحت عنوان "حجة دامغة"تعرض القرآن فى كثير من آياته إلى مسائل هى كما قلنا من صميم العلم وليس من شك أن أغلب هذه الآيات العلمية) هى فى مجموعها أحد نواحى الإعجاز القرآن التى تكشفت فى هذا العصر الذى تؤمن فيه الأفراد والشعوب بالعلم وتقاس قوى الأمم بمقدار ما أحرزت من ثقافات وجمعت من معرفة وأبتكرت من مخترعات وكما قلنا نجد فى القرآن آيات تذكر تفصيلات ما انقسم إليه العلم الحديث من فروع كما أن فيه حقائق تسبق ركب العلم كل ذلك بالإضافة إلى الآيات التى تحض على طلب العلم وتعلى من شأن العلماء فمن آيات فروع العلم قوله تعالى على سبيل المثال لا على سبيل الحصر.

١- ﴿أن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾ (١)

وتشير هذه الآية على الترتيب إلى علوم الفلك والجغرافيا والبحار والنبات والحيوان والطبيعة الجوية.

٢- ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك إنما يخشى الله من عباده العلماء إن الله عزيز غفور﴾ (٢) وتشير هاتان الآيتان على الترتيب إلى علوم الأرصاد الجوية والنبات والجولوجيا والكيمياء والأجناس وعلوم الحياة عموما ثم يعقب القرآن بقوله ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾فأى دليل واضح وأى بيان أفصح من ذلك التنبيه والتدليل على أن سلم الرقى إلى الله تعال هو نفسه سلم المعرفة الصحيحة والعلم القويم ممثلا فى دراسات الفزياء والفلك والكيمياء وعلوم الحياة. وهل ثم أى تكريم للعلم والعلماء أسمى من هذا (٣)

---

(١) البقرة -١٦٤

(٢) فاطر ٢٧-٢٨

(٣) القرآن و العلم ص ٤٤، ٤٥

فانظر إلى ما حواه القرآن الكريم من العلوم الكونية التى حث كثيرا فى البحث عنها والانتفاع بها فى كثير من الآيات القرآنية. وإليك شذرة أخرى من شذرات الإعجاز العلمى لكتاب الله تعالى.

٥- إعجاز القرآن الكريم فى ميدان علوم الفضاء

لقد سبق القرآن الكريم بإعجازه العلمى ركب العلم فى كافة نواحى هذا الميدان الذى فتح للبشر آفاقا واسعة فى الأرض وفى السماء الأمر الذى يدل على قدرة القادر وحكمة الحكيم الخبير الذى أحاط بكل شئ علما وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شئ شهيد ﴾(٢) وأول ما يلفت النظر فى موضوع حديث القرآن الكريم عن الفضاء تنبؤه بهذا العصر ومحاولات البشر لارتياد الفضاء و محاولت التغلغل فيه وقت لم يكن يعرف فيه من وسائل السفر سوى الدواب أقرأ إن شئت قوله تعالى ﴿ يامعشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان(٣٣) فبأى آلاء ربكما تكذبان(٣٤) يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران(٣٤)﴾(٢) يقول الفندى ففى هذه الآيات الكريمة إشارات واضحة إلى الإنسان سوف يستخدم سلطان العلم للتخلص من قبضة جذب الأرض وسائر أجرام السماء وعندها سيحاول السبح فى الفضاء الخارجى ولكنه يواجه أهوال

---

(١) فصلت . ٣٥

(٢) الرحمن. ٣٣-٣٤- ٣٥

الفضاء ممثلة فى كل شئ فى رياح الشمس المحرقة وفى الأشعة القاتلة للخلايا الحية التى على غرار الأشعة الكونية والأشعة فوق البنفسجية التى ترسلها الشمس ويعج بها الفضاء الذى تسبح فيه الكواكب وهذه كلها إنما تمثل النار المحرقة التى لا دخان لها ولعل هذا هو المقصود من شواظ من نار ونحاس) وقد ذكر العلماء لآية ﴿يامعشر الجن والأنس﴾ تفسيرات كثيرة منها ما يفيد أنهذا كناية عن عدم الهروب من الموت فى الدنيا ومنها ما يفيد أن ذلك كناية عن عدم الهروب من الجزاء فى الآخرة ومنها ما يفيد أن ذلك كناية عن عدم الهروب من قضاء الله وقدره . وكل هذه الأقوال مفيدة لعجز الأنسان مهما حاول الهرب وأنه فى قبضة قدرة الله عز وجل ويعجبنى تفسير ابن عباس الذى ينصب ما نحن صدده من بيان الإعجاز العلمى للقرآن الكريم حيث قال فى حاشية الجمل (وقال ابن عباس معناه أن استطعتم أن تعلموا ما فى السموات والأرض فاعلموه ولن تعلموه إلا بسلطان أى بينة من الله تعالى)، ومما يلفت النظر أيضا أن القرآن الكريم ذكر الشهب التى تنساب فى الفضاء القريب سابحة فى أسراب تعترض مسار الأرض والكواكب من آن لآخر والمعروف علميا أن هذه الأسراب من مخلفات المذنبات القديمة بعد تفتيتها . كما يقول الأستاذ جمال الدين الفندى. قال تعالى عن الشهب ﴿وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا﴾(١) ومما يلفت النظر كذلك فى هذا المجال وهو أهم ما فى هذا الموضوع كله من حيث التسليم بالإعجاز العلمى

---

(١) الجن. ٩

للقرآن الكريم لما اتضح من حقائق الكون بما يوافق الآيات ما زكره سبحانه عن الصعود في السماء أو السبح فيها بكلمة يعرج أويسبحون أو معارج قال تعالى في سورة المعارج ﴿ سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع من الله ذى المعارج تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة ﴾(١) وقال تعالى في سورة السجدة ﴿ثم يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون ﴾(٢) وقال تعالى في سورة سبأ ﴿ يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وماينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور﴾(٣) والمعارج :المصاعد ،ويعرج :يصعد ولكن تلك المصاعد أو ذلك الصعود لا يكون صعودامستقيما أخذا من مادة عرج، بل صعودا مشتملاعلى انعطاف أو سير في مسارات منحنية ملتوية وذلك لأن الفضاء الكوني كما ثبت علميا لا يعرف الخط المستقيم . فانظر كيف عرف نبينا صلى الله عليه وسلم هذه الحقيقة الكونية الفضائية فيعصر ما كان يعرف فيه شئ من علوم الفضاء . لقد أثبت العلم الحديث أن السبح في الفضاء بعيدا عن الأرض لا يمكن أن يكون إلا في مسارات منحنية بعضها بيضاوى الشكل وبعضها ينفرج إلى ما لا نهاية وبعضها حاد الانعطاف مثل مسارات المذنبات التي تسبح حول الشمس فإن المذنبات

---

(١) المعارج. آية ١-٢-٣-٤

(٢) السجدة ,, ٥

(٣) سبأ ,, ٢

تبدو كأنما تظهر لنا فجأة مقبلة من مكان خفى فى السماء كلما اقتربت فى مسارها من الشمس ثم تختفى كلما ابتعدت عن الشمس فى خضم الفضاء الفسيح (١) قد قال تعالى ﴿لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون﴾(٢) ولقد برز القرآن الكريم فى هذا المجال بإعجازه العلمى حيث بين بأسلوبه الحصر إلى أن البشر لا يمكنهم أن يعيشوا بعيدا عن الأرض فلا حياة لهم فى الفضاء الكونى بعيدا عن المجال الأرضى (٣) ولا حياة لهم فى أى كوكب آخر قال تعالى : ﴿قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون ﴾(٤) أى فيها لا فى غيرها تحيون وفيها لا فى غيرها تموتون ومنها لا من غيرها تخرجون ومثل هذه الآية فى الدلالة على المقصور قوله تعالى ﴿ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾(٥) فمعنى الآية مع أسلوب القصر فيها ولكم فى الأرض لا فى غيرها أى فيها خاصة مستقر بإمكان حياتكم فوقها وتمتع من أكل وشرب ولبث وحياة إلى أجل معلوم. وهذا الذى أخبر به القرآن الكريم هو ما وصل إليه العلم الحديث أخيرا وأثبته وحققه فلا حياة للإنسان بعيدا عن الكوكب الأرضى لعدم وجود وسائل الحياة ومقوماتها

---

(١) من كتاب القرآن والعلم بتصرف ص ٥٠ وما بعدها.

(٢) ٤٠- يس.

(٣) استنبطت هذا من مؤدى أسلوب القصر فى الآية بعد أن قرر العلم الحديث هذا التقى به.

(٤) ٢٥- الأعراف.

(٥) ٣٤- الأعراف.

فأى إعجاز علمى أعظم من هذا الإعجاز إنه القرآن الكريم الذى نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم المبلغ عن الله تعالى الذى أحاط بكل شئ علما ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾(١) فسبحان من أودع فى كتابه أسرار الكون وما به سعادة الدارين للثقلين ونسأل الله تعالى أن يوفقنا لفهم كتابه والعمل بما فيه والتأدب بآدابه والتخلق بأخلاقه وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه وسلم

(١) ١٤- تبارك.

ترجمة القرآن وحكمها

مقدمة

تعريف الترجمة لغة

عرف النووى الترجمة بأنها التعبير عن لغة بلغة أخرى. وعرفها الشهاب على البيضاوى بأنها تفسير لسان بلسان آخر وقد أطلق على تبليغ الكلام مطلقا وفى تفسير ابن كثير والبغوى تستعمل الترجمة فى لغة العرب بمعنى التبيين مطلقا سواء اتحدت اللغة أم اختلفت. وقال الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى ﴿وكذلك أنزلناه حكما عربيا﴾أى حكمة مترجمة بلسان العرب.

الخلاصة أن المعنى العام للترجمة هو مطلق البيان والتعبير وقال صاحب القاموس (الترجمان كعنفوان وزعفران المفسر للسان وقد ترجم عنه والفعل يدل على أصالة التاء ،والتفسير : بيان وتوضيح وتعبير عن المعنى المراد ومعنى ترجمة القرآن الكريم على وجه الإجمال: التعبير عن معانيه بألفاظ أخرى غير عربية .

المعنى الاصطلاحى لترجمة القرآن الكريم عند الفقهاء

أولا : عند الحنفية

تنقسم ترجمة القرآن إلى أربعة أنواع .

١- الترجمة اللفظية المثلية

وهى غبدال لفظ بلفظ آخر يرادفه فى المعنى مع الاحتفاظ بما للمبدل منه من الدلائل القريبة والبعيدة والدلائل الأصلية والتبعية وهذه الترجمة محالة ليست فى استطاعة الثقلين باتفاق العلماء كما فى قوله تعالى ﴿أنى آنست نارا﴾ الفعل

آنست لا يحل محله فى المعنى الأصلى والتبعى (ابصرت) وكما فـى قولـه تعـالى ﴿فإن آنستم منهم رشدا﴾ الفعل آنستم لا يحل محله فى معنـاه الأصلـى والتبعـى الفعل علمتم .

٢- الترجمة اللفظية بدون المثل

وهى إبدال لفظ بلفـظ آخـر يرادفـه فـى المعنـى الإجمـالى أولى المعنـى القريـب بصرف النظر عن المعانى التبعية والبعيدة عن الخصائص والمزاياوهذه ممكنـة علـى وجه الأجمال بالقدر المستطاع فى بعـض الألفـاظ دون بعـض ومعرضـة للخطـأ وهذه هى التى أجازها الإمام أبو حنيفة وصاحباه فى القراءة بالفارسية منها فـى الصلاة فقط عند عدم القدرة على العربية وهـذا النـوع يسـميه الفقهـاء الترجمـة الحرفية والترجمة المساوية.

٣- الترجمة التفسيرية

وهى ترجمة تفسير من التفاسير التى ألفها العلماء باللغة العربيـةإلى لغـة أخـرى وبمعنى آخر التعبير عن كلام المفسرين بكلام آخر من لغـة أخـرى ، وهـذه هـى محل الجواز بشروط اتقان اللغتين العربية والأجنبية ، والإلمام بعلوم القرآن والسنة وعلوم الشريعة الإسلامية فإن فقِد أحد هذه الشـروط بحيـث يتطـرق الخلـل إلى التعبير عن معانى القرآن منعت منعا باتا.

٤- ترجمة المعانى:

أى بيان معانى القرآن بلغة آخرى وهذه الترجمة تشمل الأنواع الثلاثة السـابقة أى أن المترجم قد يأتى من أول الأمر فيفهم المعنى من اللفظ ثم يعـبر عنـه بلفـظ آخر من لغة آخرى يدل عليه وقد يفهم الآية جملـة ويعـبر عنهـا بألفـاظ أخـرى أجنبية تؤدى هذا المعنى وقد يأتى لأحد التفاسير المعروفة فيترجمه إلى لغة أخرى.

فإن كان المترجم يعبر عن المعنى الذى فهمه من اللفظ العربى بلفظ آخر يساويه فى المعنى على وجه الإجمال فهى الترجمة اللفظية أو الحرفية أو المساوية. وإن كان يضع لمعانى الجملة أو اللفظ من القرآن جملة عربية تؤدى ما فهمه من الجملة أو اللفظ ثم يترجمه إلى الغة آخرى أو يأتى لأحد التفاسير فيترجمه إلى لغة أخرى فهى الترجمة التفسيرية . وحينئذ يكون حكم ترجمة معنى القرآن الكريم حكم الأنواع الثلاثة على التفصيل وقد يطلقون عليها الترجمة التفسيرية.

ثانيا : عند المالكية والشافعية والحنابلة

ترجمة القرآن الكريم عند المالكية والشافعية والحنابلة هى عبارة عن التعبير عن المعانى المفهومة من اللفظ أو الجملة بألفاظ غير عربية وهذه هى الترجمة الممكنة عندهم ومذهبهم فيها التحريم.

موقف العلماء من ترجمة القرآن الكريم

القرآن الكريم هو المصدر الأول للتشريع الإسلامى وهو آية الله العظمى والمعجزة الكبرى الخالدة لرسول الله صلى الله عليه وسلم معجز فى فصاحته وبلاغته وإحكام أسلوبه وجزالة لفظه. ولذلك آمن كثير من الصحابة والتابعين ومن جاء بعدهم بإحسان كسيدنا عمر وسعد بن معاذ وأُسَيْد بن حضير وغيرهم فقد آمنوا بسماع القرآن الكريم. ولقد أوجب الله تعالى أمانة تبليغ الدعوة الإسلامية على المؤمنين قال تعالى ﴿قل هذه سبيلى ادعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى ﴾.

وأهل القرآن إنما ندبوا لذلك لأن لهم مقاصد عالية لا تتم إلا بتعميم نشره واشتراك أمم مختلفة فى إقامته وهذه المقاصد العالية تنحصر أصولها فى النواحى الآتية وهى:-

١- تطهير العقائد الأولية مما أدخل عليها من آراء المتزيدين .

٢- إنقاذ الضمير البشرى من الذين انتحلوا حق التسلط عليه .

٣- إقامة سلطان العقل وإعلان حرية النظر.

٤- إسقاط الوسطاء بين الله وخلقه .

٥- وحدة الجماعات البشرية كافة.

٦- إهدار ما بينها من فروق قومية واختلافات جنسية ولغوية.

٧- الرجوع بالدين إلى أصله الأول الذى أوحاه الله إلى جميع الأمم خالصا من كل شائبة بشرية.

٨- إقامة دولة الحق فى الأرض.

٩- دخول الأمم كافة إلى حظيرة السلام والتكافل على تحقيق الخير العام.

١٠- دوام الارتقاء فى العلم والعمل .

١١- إنذار من لا يساهم من الجماعات على تحقيق هذا الإصلاح العام بالعذاب فى الدنيا وسوء المنقلب فى الحياة الأخرى(١) وإذا قصر المسلمون فى هذه الأمانة كانوا مقصرين وأصبحوا على ظهر الأرض ثقلا بئيسا من الثقلين.

---

(١) محمد فريد وجدى الأدلة العلمية على جواز ترجمة معانى القرآن إلى اللغات الأجنبية ص ٣-٤

ولقد اتفقت كلمة علماء المسلمين فى كل زمان ومكان على وجوب القيام بهذه الأمانة الغالية ولكن الخلاف الذى نشأ بينهم كان فى الأسلوب الذى تؤدى به أمانة التبليغ التى هى فى أعماق هذه الأمة إلى جميع الأمم قاطمة . و لم يقم خلاف بين علماء المسلمين فى العهود الأولى للإسلام حول ترجمة القرآن الكريم للأسباب الآتية:-

١- أن الصحابة لم يفكروا فى ترجمة القرآن ولا وجدوا أنفسهم وجهاً لوجه أمام ترجمة القرآن الكريم بأيدئ الأمم التى فتحوها ، ولهذا لم تكن هذه القضية مثارة فى عهدهم ، وما كانت مسألة خلافية بينهم حيث كان الشغل الشاغل للصحابة هو تثبيت دعائم التوحيد والإطاحة بطواغيت الشرك والوثنية و لم يؤثر فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ترجمة لشئ من القرآن الكريم إلا النذر اليسير والقدر الضئيل مثلما ورد من أن الصحابى الجليل سلمان الفارسى ترجم الفاتحة إلى اللغة الفارسية لبعض قومه لقراءتها فى الصلاة وهو مستند الأمام أبوحنيفة فيما روى عنه وعن صاحبيه فى جواز الصلاة بترجمة القرآن للعاجز عن النطق باللغة العربية وهذا هو رأى الأحناف حيث يقولون يجوز للمصلى أن يقرأ الفاتحة باللغة التى يعرفها وصلاته صحيحة على ذلك .

٢- بالرغم من عموم رسالة الإسلام والقرآن عمادها وانتشارهذا الدين فى بلاد لا تتحدث العربية وجواز الصلاة بترجمة القرآن عند المذهب الحنفى الأوسع انتشارا فى بلاد المسلمين إلا أن التاريخ لم يحفظ ما يدل على أن أحداً من المسلمين حاول ترجمة القرآن إلى غير اللغة العربية طوال اثنى عشر قرناً من

الزمـان (١) ، ولم يقـدم أصحـاب الملـل الأخرى على ترجمـة القـرآن كالمجــامع الكنسية وغيرها خوفا على رعاياهم من الدخول فى الإسـلام ، ولذلـك عندمـا ظهر فى أوروبا لأول مرة ترجمة القرآن الكريم باللغة اللاتينية سنة ١١٤٣م أيـام الحروب الصليبية كيدا للإسلام ومحاولة للسيطرة على المسليمن لم تطبع إلا بعـد أربعة قرون عـام ١٥٤٣م وجـاءت أغلـب الترجمـات العربيـة والمكتوبـة بـأيدى أجنبية مليئة بالأخطاء العمديــة أو مصـدرة بمقدمـات مشـوهة للإسـلام ومحملـة بالافتراءات على النبى محمد صلى الله عليه وسلم.

٣-الرغـم من أنه قامت دولة الترجمة فـى أيـام الدولـة العباسـية على يـد المنصـور وأبنائه وبخاصة حفيديه هـارون والمـأمون إلا أن القـائمين بأعبـاء الترجمـة آنـذاك كانوا كلهم من النصارى واليهود والصابئة ، استخدمهم الخلفـاء لنقـل العلـوم الطبيعية والرياضية والطبية وغيرها من اليونانية والسريانية والهندية والفارسـية إلى اللغة العربية أشهرهم حنـين بـن اسـحاق، وابـن البطريـق ، وقسـطا بـن لوقـا ، وثيادورس ، وأبو روج الصادق ، وأبو بشر بن متى ، وحبيش ، واصطفـان بـن السلت ولم يكن بينهم مسلم واحد فقط(٢) وليس من المقبول شرعا وعقـلا أن يسند إلى واحد من هؤلاء مهمة ترجمة القرآن الكريم إلى بعض اللغات الأجنبيـة. وهكذا نجد أنه لم يؤثر عن علماء المسلمين تفصيلات فقهيـة فـى عهـد الإسـلام الاولى بشأن ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأجنبية لعدم وجود هـذه الترجمـة

---

(١) أحمد ابراهيم مهنى دراسة حول ترجمة القرآن الكريم ص ١٢

(٢) محمد فريد وجدى الأدلة العلمية على جواز ترجمة معانى القرآن إلى اللغات الأجنبيـة ص ٥٤.

ذاتها لكون القائمين بالترجمة من أهل الملل الآخرى فى بعض الأحيان كما فى أيام الدولة العباسية وبخاصة فى عهد المنصور وأبنائه هارون والمأمون ولسيطرة اللغة العربية وغلبتها على لغات الأمم الأخرى فى ظل سياسة تعريب الدواوين والمصالح الحكومية وتفوق العنصر العربى ، واصطفائه على غيره واشتراط تعلم اللعة العربية لعمال الدولة والقائمين بالكتابة والوزارت إلى جانب أن اللغة العربية صارت لغة العلم والأدب يتنافس فى غمارها الشعراء والأدباؤء والعلماء فضلا عن ضرورتها ومسيس الحاجة إلى تعلمها وإتقانها لفهم القرآن الكريم وعلوم أسلام فصارت اللغات الأجنبية فى العصور الاولى للإسلام أقزاما وحشائش إلى جانب البساتين اليانعة المثمرة لرياض اللغة العربية التى تشمخ بانتسابها إلى القرآن الكريم والسنة المطهرة وتستمد منهما صلاحيتها وقدرتها الفائقة وترتقى وتثرى فى سلم التقدم العظيم فى كل مجالات العلوم على أيدى العلماء المسليمن المجيدين والمجددين لها ، وتجد كذلك الدعم والتشجيع من الخلفاء والأمراء والفقهاء والعلماء دون عئق أو معطل أو سفيه مثبط ولا غرو فقد اجتمعت لها أسباب الدين والدنيا وعناية الأرض والسماء و لم نجد خلافا بين علماء المسلمين فى مسألة ترجمة القرآن الكريم لدى أئمة الفقه المشاهير إلا بشأن القراءة فى الصلاة بغير العربية للعاجز.

قال الشافعية والحنابلة:-

أن كان المصلى لا يستطيع قراءة الفاتحة لعجزه فقد وجب عليه أن يقرأ آيات من القرآن بقدرها متى كان قادرا على ذلك .

وإذا لم يكن حافظا سوى آية واحدة أو أكثر منها فعليه تكرار مايحفظ بقدر آيات الفاتحة (١) وقالوا أيضا : فأن كان عاجزا تماما عن قراءة أى شئ من القرآن الكريم وجب عليه أن يذكر اسم الله تعالى بقدر الفاتحة . وأن عجز عن الذكر أيضا وقف ساكتا بقدر قراءة الفاتحة وتبطل صلاته أن لم يفعل ذلك.
وأما الأحناف فيقولون : يجوز للمصلى أن يقرأ الفاتحة باللغة التى يعرفها وصلاته صحيحة على ذلك .

ويقول المالكية: العاجز عن العربية يجب عليه أن يتعلمها متى أمكنه ذلك فإن لم يتمكن وجب عليه الاقتداء بمن يحسنها فإن لم يجده ندب له أن يفصل بين تكبيرة وركوعه بذكر الله تعالى. هذا إذا لم يكن أخرس فإن كان أخرسا فلا شئ عليه. ويتشهد الفقهاء الذين يجوزون الذكر بدل القرآن لمن لم يحسن قراءة القرآن أو يعجز عنها بحديث رفاعة بن رافع أن النبى صلى الله عليه وسلم علم رجل الصلاة فقال : (أن كان معك قرآن فاقرأ وإلا فاحمده وكبره وهلله ثم أركع)(٢) ولم تشهد الأمة الإسلامية مساجلات بشأن الوقوف على الحكم الفقهى فى مسألة ترجمة القرآن الكريم كما شهدت فى مصر على امتداد ما يزيد عن عشر سنوات (١٣٤٣- ١٣٥٥) (١٩٢٥-١٩٣٦) حيث دارت

---

(١) حمزة النشرتى وعبد الحفيظ فرغلى وعبد الحميد مصطفى ، الفقه الاسلامى على المذاهب الاربعة ج١ص ٤٤٤ -٤٤٥

(٢)الفقه الاسلامى على المذاهب الاربعة ج ١ ص ٤٤ ، ٤٥

مناقشات بين علماء المسلمين وكتّابهم حول إباحة ترجمة القرآن أو خطرها ولقد أثير هذا الموضوع ثلاث مرات

الأولى : عندما منعت مشيخة الأزهر ادخال نسخة من ترجمة القرآن الكريم باللغة الإنجليزية إلى مصر بل طلبت من مصلحة الجمارك إحراقها .

والثانية : عندما قررت حكومة تركيا برئاسة مصطفى كما أتاتورك ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة التركية.

والثالثة: عندما قررت مشيخة الأزهر الشروع فى عمل ترجمة لمعانى القرآن الكريم بالاشتراك مع وزارة المعارف وذلك عندما تولى مشيخة الأزهر للمرة الثانية الأستاذ الأكبر محمد مصطفى المراغى (١) وسنعرض فيما يلى آراء العلماء فى هذه القضية:-

المرة الأولى

عندما منعت مشيخة الأزهر ادخال نسخة من ترجمة القرآن باللغة الإنجليزية إلى مصر بل طلبت من مصلحة الجمارك احراقها.

رأى فضيلة الشيخ محمد شاكر وكيل الأزهر سابقا

كتب فضيلة الشيخ محمد شاكر أربع مقالات مدافعا عن القرآن الكريم عندما أثارت الصحف المصرية ضجة حول ما صدر من مشيخة الأزهر إلى مصلحة الجمارك بإحراق ما ورد إليها من ترجمة القرآن باللغة الإنجليزية ، حيث ذكرت

---

(١) أحمد إبراهيم مهنى دراسة حول ترجمة القرآن الكريم ص ١٣

بعض الصحف معترضة على فعل المشيخة ، أن تلك الترجمة من أحسن التراجم الإنجليزية لإنها ترجمة محمد على رئيس حزب التبشير فى الهند. فانبرى الشيخ ليقرر وجه الحق فى هذه المسألة فقال فى بدء كتابه القول الفصل فى ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأعجمية وحسبنا فى التعريف بتلك الترجمة هذا الذى نقتطفه من رسالة نشرتها جريدة الأخبار فى مساء الخميس ٢٢رمضان سنة ١٣٤٣ ٦/١ سنة ١٩٢٥م جاء فيها

بقطع النظر عما فعلت المشيخة نحب أن نطلع القراء على أصل الأمر ونرفع الستار عن حقيقة تلك الترجمة فصاحب هذه الترجمة محمد على من أتباع المتنبئ ميرزا غلام أحمد القاديانى وهو غير مولانا محمد على شوكت على الزعيم الهندى المشهور. ولقد كان لأتباع ذلك المتنبئ فى بادئ الأمر حزب واحد فاختلفوا بعد موته (إنقسموا إلى حزبين أحدهما القاديانى الذى مركزه بلدة قديان وثانيهما حزب اللاهورى ومركزه عاصمة بنجاب للاهور ورئيسة محمد على صاحب هذه الترجمة وكلا الحزبين قد ترجما القرآن بالإنجليزية حتى ينشر مبتورا فى انجلترا وأمريكا والمانيا واستراليا وغيرها مع حواشى تفسيرية وكلاهما حرفا معانى القرآن فى تلك الحواشى تحريفا فاحشا وفق ديانتهم الجديدة وعقيدتهم الباطلة غير أن الحزب الأول قد أغرق فى التحريف فاثبت فى الحواشى نبوة ميرزا غلام أحمد وحكم بكفر من لم يكن أحمديا من جميع المسلمين .

أما الحزب الثانى وهو صاحب هذه الترجمة فقال فى مقدمة ترجمته : أن المتنبئ ميرزا غلام أحمد كان مجددا ومهديا فى الإسلام من الله تعالى ومن شاء أن يطلع

على ما فى تلك الحواشى من المفتريات فليرجع إلى الفهرست الهجائى فى بيان ألفاظ غلام أحمد. ويوضح الشيخ رأيه فى ترجمة القرآن فى مقالات أربع بجريدة المقطم فى ١٠ من أبرايل سنة ١٩٢٥ / والثانية فى ١٩ من أبرايل والثالثة فى ستة من مايو والرابعة فى ٢٢ من مايو سنة ١٩٢٥ / وقد بين الشيخ قائلا : الحق الذى لا محيص عنه أنه لا يجب الإقدام على ترجمة القرآن إلى غير اللغة العربية كما لا يحل الإقدام على تبديل أى كلمة من كلماته وانتهى الشيخ فى مقالاته إلى أن فقهاء الإسلام وأئمة الدين المجتهدين قد أجمعوا :-

١- على تحريم قراءة القرآن بغير اللغة العربية وبغير النظم العربى المبين .

٢-وعلى تحريم ترجمة القرآن الكريم إلى أى لغة أعجمية.

٣- وعلى تحريم كتابة المصاحف بهذه التراجم .

٤- وعلى تحريم تداول هذه التراجم بين من يحسن العربية ومن لا يحسنهامن عامة المسلمين.

وبهذا يرى الشيخ محمد شاكر حرمة الترجمات القرآنية المدعى فيها الإحلال محل الأصل المنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم والقيام مقامه فى الصلاة بها والتعبد بتلاوتها والاحتجاج بمعناها ولا يكاد يخالفه فى ذلك أحد وأما بالنسبة لترجمة معانى القرآن فيذكر أن فقهاء المسلمين أجازوها.

رأى فضيلة الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوى

كتب رسالة أسماها رسالة حكم ترجمة القرآن الكريم وقراءته وكتابته بغير اللغة العربية فى ٥ من شهر رجب سنة ١٣٤٣هـ و٢٨ من أبرايل سنة ١٩٢٥م حيث قال إن ترجمة القرآن ترجمة حرفية بالمثل غير معقولة ولا مقدورة وليست

محل اختلاف بل محل اتفاق على عدم إمكانها فضلا عن وقوعها وإنما محل البحث هو ترجمة القرآن الكريم ترجمة حرفية بدون المثل دون الترجمة التفسيرية فإنها جائزة قطعا. ويلخص الشيخ ما سبق فيقول الترجمة الحرفيه المثلية للقرآن بأى لغة غير معقولة و لاممكنة والترجمة التفسيرية جائزة قطعا وهى ترجمة للتفسير لا للقرآن .

رأى فضيلة الشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية سابقا

يرى فضيلةالشيخ محمد بخيت مفتى الديار المصرية أن ترجمة القرآن واجب على الكفاية وقد أورد رأية هذا فضيلة الشيخ محمود شلتوت شيخ الأزهر سابقا ويقول الشيخ محمود شلتوت أفتى فضيلة المغفور له المفتى الأسبق الشيخ بخيت سنة ١٩٢٥م أن ترجمة القرآن للتعلم والتعليم و التفهم والتفهيم والإنذار والتبليغ قد أجازها الحنفية والحنابلة والشافعية فى قول بلا تفصيل واستحسنها الحنابلة. والذى آراه أن الترجمة على الوجه الذى بين فى كتب الحنفية أصبحت الآن واجبا على الكفاية حفظا للقرآن من تحريف معناه وترجمته على غير الصحيح وبغير المراد منه وبحفظ القرآن يحفظ أساس الدين المتين (١)

وقد أفرد الأستاذ محمد مصطفى الشاطر فى كتابه القول السديد فى حكم ترجمة القرآن المجيد نصا من رسالة الشيخ بخيت .

يقول فيه : إن كانت الترجمة إبدال لفظ مكان لفظ من القرآن المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم المنقول تواترا لم يكن قرآنا بل هو تبديل للقرآن

(١) احمد ابراهيم مهنى دراسة حول ترجمة القرأن الكريم ص ٢٥

والتبديل لا يجوز بالإجماع لا كتابة ولا قراءة ولو كان بألفاظ عربية أو بخط غير خط المصحف العثماني ، ثم قال : وإذا كان الإجماع منعقدا على منع الكتابة بغير الألفاظ العربية المنزلة ، ولو كانت الكتابة العربية بألفاظ أخرى فكتابته بأى لغة من اللغات غير العربية كالتركية مثلا أولى وأحق بالمنع(١) والظاهر من [illegible] أن فضيلته إنما منع الترجمة الحرفية المثلية واعتبرها تبديلا وتحريفا للقرآن الكريم ، والتبديل لايجوز بالإجماع لا كتابة ولاقراءة وهذا معنى النص الذى ساقه الأستاذ محمد مصطفى الشاطر ، وأما بالنسبة للترجمة التفسيرية او المعنوية فقد أجازها الشيخ شلتوت وأوجبها على الكفاية للتعلم والتعليم والتفهم والتفهيم بشرط كتابة النص العربى معه والتحقق من سلامة الترجمة من الخلل .

(٢)محمدمصطفى الشاطر القول السديد فى حكم ترجمة القرآن المجيد ص ٥٦

المرة الثانية

عندما قررت حكومة تركيا برئاسة مصطفى كمال أتاتورك ترجمة القرآن إلى اللغة التركية

جاء هذا الحدث بعد إلغاء الخلافة الإسلامية على يد مصطفى كما أتاتورك وصاحب هذا الإلغاء تحويل حروف اللغة التركية من العربية إلى اللاتينية ، وإصدار تشريعات صريحة العداء للإسلام ، ولذلك عندما دوى حدث ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة التركية كان له صدى غير طيب فى البلاد الإسلامية وأحدث ضجة فى ساحات البحث والمناظرة بين علماء فقد أعلن فريق من علماء الأزهر أن ترجمة القرآن كارثة دينية لأنها جولة ماكرة فى مخطط الحكومة التركية العميلة للصليبية الغربية هدفها ضرب الإسلام فى صدره الأول ولذلك انبرى فريق متحمس من علماء المسلمين لمعارضة هذا التيار بكل ما يستطيع من حجج وأدلة وتصدوا لترجمة القرآن الكريم استبعادا لها من الساحة الإسلامية.

وفى نفس الوقت برز فريق آخر أحسن الظن بالحكومة التركية فدافع عن الترجمة باعتبار أنها وسيلة لفهم الدين وتعاليمة فى شعب لا يعرف اللغة العربية ويحتاج إلى توصيل معانية إليه بلغته الأصلية وإليك نماذج من آراء المعارضين ونختمها بآراء المؤيدين:ـ

رأى الشيخ مصطفى صبرى (آخر شيخ للإسلام فى الدولة العثمانية)

سجل رأية فى كتاب سماه (مسألة ترجمة القرآن) سنة ١٩٣٢م

فقد كان يعتقد الشيخ مصطفى صبرى أن ما حدث فى تركيا من إلغاء الخلافة وما تبعه من العمل على أن تكون الدولة علمانية كان عاملا واضحا فى إثارة موضوع ترجمة القرآن الكريم وكان يرى أن الأستاذ فريد وجدى حمل لواء الدفاع الصريح عن رجال تركيا الحديثة ويعرض الشيخ مصطفى صبرى رأى الشيخ المراغى على أنه مشارك فى هذا الاتجاه بطريق غير مباشر واعترف بأن جميع آيات القرآن لا يمكن ترجمتها ترجمة حرفية وأن الصلاة لا تجوز إلا بتراجم الآيات التى يمكن ترجمتها ترجمة حرفية ولا تجوز الصلاة بتفسير القرآن ولا بالترجمة المعنوية التى هى فى حكم التفسير.ونستخلص من كلام الشيخ مصطفى صبرى ما يلى :ـ

أولا: يجيز فضيلته الترجمة التفسيرية ويرى أنه لا كلام فى جوازها وإنما الكلام فى ترجمة تقوم مقام القرآن فى الصلاة وغيرها.

ثانيا : يجوز وجود ترجمات يرجع الناس إليها ويطالعونها كالتفسير الموجز للقرآن حتى لا يحرم فهم المعنى بشرط إلا تتخذ قرآنا ولا تتلى فى الصلوات والمساجد والأندية والمنازل كما يتلى القرآن.

رأى فضيلة الشيخ محمد الخضر حسين:

كتب مقالا بعنوان نقل معانى القرآن إلى اللغات الأجنبية سنة ١٩٣١م ويرجع النظر فى هذا البحث إلى مقامين :-

المقام الأول : قراءة ترجمة القرآن فى الصلاة.

المقام الثانى : نقل معانى القرآن الكريم ليطلع عليه أهل ذلك اللسان لعلهم يهتدون.

وخلاصة البحث أن الخلاف فى القراءة فى الصلاة بغير العلابية يرجع إلى مذهبين :ـ

أولهما : أن ذاك محظوروالصلاة بهذه القراءة غير صحيحة وهو مذهب الجمهور من أئمة الدين.

وثانيهما: جواز القراءة عند العجز عن النطق بالعربية وهو مذهب الإمامين أبى يوسف ومحمد بن الحسن.

المقام الثانى فى نقله للاطلاع على حكمته فى النقل وجوه من الفساد تقتضى المنع منها وفى النقل مصلحة تستدعى الإذن فيه.

وجوه الفساد فى ترجمته.

الترجمة نوعان أحدهما أن يعمد المترجم إلى كل كلمة عربية ويضع بدالها ما يرادفها من اللسان غير العربى ثم يسوق الجملة مراعيا ترتيبها على قدر ما تسمح به قواعد اللسان وهذا يسمى ترجمة حرفية.

وثانيهما : أن يلم بمعنى الجملة العربية ثم يصوغها فى جملة من اللغة الأخرى سواء أساوت ألفاظ الترجمة ألفاظ الأصل أو أختلفتا إيجازا وإطنابا وهذا يسمى ترجمة معنوية.

والخلل الذى يشترك فيه الترجمتان (الحرفية والمعنوية) أن يكون اللفظ ذا معنايين أو معانى تحتملهما الآية فيضطر المترجم إلى أن يضع بدله من اللغة الأجنبية اللفظ الموضوع لما يختاره من المعنيين أو المعانى حيث لا يجد لفظا يشاكل اللفظ العربى فى احتمال تلك المعانىالمتعددة، ومن الخلل الذى يدخل على الترجمة الحرفية أن يستعمل القرآن اللفظ فى معنى مجازى فيأتى المترجم بلفظ يرادف اللفظ فى معناه الحقيقى، ومن هذا القبيل أن يطلق القرآن لفظا عاما ويريد به خاصا فيأتى المترجم بما يرادف العام دون الخاص.

رأى الشيخ إبراهيم الجبالى

أن الترجمة هى تفسير الكلام بلسان آخر على وجه يستوفى كل المقصود منه وأن التفسير أو الشرح هو تبيين الكلام بشرح مضمونه ولو بصورة إجمالية لم تستوفى كل الفصيلات المقصودة. هذا المعنى هو مسار النزاع الحاضر والنزاع السابق عليه.

إن الضجة السابقة على إثر منع مشيخة الأزهر إدخال نسخة من ترجمة للقرآن يراد منها أن تأخذ المعنى المفهوم من الترجمة وهو الإتيان بما يقوم مقام الأصل فى كل ما هو مقصود منه بحيث يستغنى عن الترجمة عن الأصل وتقنع نفوس الناس بما وصلت إليه أيديهم لا يتطلعون بعده إلى شئ وقد أنزل القرآن لمقصدين الأول: هداية الناس إلى ما فيه صلاحهم.

والثانى: أن يكون آية للنبى شاهدة لصدقه فأما المقصد الثانى فلا يمكن تأتيه بالترجمة أتفاق من الطرفين المتنازعين.

المرة الثالثة

عندما تقدم الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر بمشروع ترجمة الأزهر لمعانى القرآن بعد توليه المشيخة للمرة الثانية عام ١٩٣٦م

لقد كتب شيخ الازهر إلى حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء ليأخذ قرارا إلى إظهار معانى القرآن الكريم نقية فى اللغات الحية لدى العالم ورد عليه رئيس مجلس الوزراء أنى أرى أن وضع ترجمة رسمية لمعانى القرآن الكريم أمر واجب تقتضيه ضرورة العمل على نشر هداية الإسلام بين الأمم التى لا تتكلم العربية وللقضاء على الأثر السئ الذى أحدثته الترجمة الخاطئة التى انتشرت وقام بها أفراد لا يحيطون بأسرار اللغة العربية.

وقد أفتى العلماء بجواز ترجمة معانىالقرآن بواسطة رجال من خيرة علماء الازهر بعد الرجوع لآراء أئمة المفسرين وصوغ هذه المعانى بعبارات دقيقة محدودة ثم نقل المعانى التى فهمها العلماء إلى اللغات الآخرى بوساطة رجال موثوق بأمانتهم واقتدارهم فى تلك اللغات بحيث يكون ما يفهم فى تلك اللغات من المعانى هو ما تؤدية العبارات العربية التى يضعها العلماء.

هذا مع العلم بأنه سيوضع تعريف شامل يتضمن أن الترجمة ليست قرآنا وليس لها خصائص القرآن ، وليست هى ترجمة كل المعانى التى فهمها العلماء وإنه ستوضع الترجمة وحدها بجوار النص العربى للقرآن.

وقد أفتى العلماء بجوازها شرعا وقد أفتى بهذا هيئة كبار العلماء وهم :ـ

محمود الدينارى وعبد المجيد اللبان وإبراهيم حمروش ومحمد مأمون الشناوى وعبد المجيد سليم ومحمد عبد اللطيف الفحام والدسوقى عبد الله البدوى ويوسف الدجوى وعبدالرحمن قراعة وغيرهم.

وبعد هذا العرض المستفيض لآراء العلماء فى حكم ترجمة القرآن نخلص إلى ما يلى:

أولا: بعد تحرير محل النزاع يسهل التوصل إلى أن الخلاف بين المانعين والمؤيدين لفظى فقط ، حيث يتفق الطرفان على استحالة الترجمة الحرفية المثلية وجواز التفسيرية للضرورة ، وهل هناك ضرورة أكثر من الحاجة الملحة الآن لتصحيح المفاهيم الخاطئة للترجمات الكثيرة.

ثانيا : إذا جاز قراءة الترجمة القرآنية فى الصلاة عند أبى حنيفة وصاحبيه فهل يمتنع قراءتها للعبرة ومعرفة الأحكام فى غير الصلاة ؟ وقد أورد الشيخ المراغى تأييد غير الحنفية لجواز ترجمة معانى القرآن الكريم كابن بطال المالكى وابن حجر الشافعى والمقدسى الحنبلى ، فامتنع إذن نسبة التجويز للحنفية وحدهم بل يشترك معهم فى المذاهب الثلاثة الآخرى.

ثالثا: اختلاف ألسنة المسلمين الأعاجم عن لغة القرآن لا ينبغى أن يكون سدا منيعا بينهم وبين ما يرغبون من فهم تعاليم الإسلام من المصدر الأول الأساسى الذى يشبع نهمتهم ، فتبليغ الدعوة واجب وتبليغ القرآن نفسه والإنذار به فرض لا يسقط بحال ولا يكفى تبلغ مجرد اللفظ القرآنى فحسب حتى للمتكلمين بالعربية الفاقدين للثقافة المفهمة أياه هم إذ من الضرورى بيانه وشرحة فما بالنا بمن لا يتكلمون العربية ولا يفهمونها ألا يصبح من الواجب الكفائى إبلاغهم هذا البيان بلغتهم قياما بالواجب وسدا للذرائع ولإبلاغ النفس عذرها.

رابعا : كان اندفاع العلماء المانعين قائما أساسا من منطلق المقاومة لإلغاء الخلافة الإسلامية ولحركة الفرنجة والعلمانية التى نشبت فى تركيا ، ومنها تغيير الحروف العربية فى اللغة التركية إلى الحروف اللاتينية وترجمة القرآن ترجمة ادعى فيها أنها تقوم مقام الأصل وتؤدى بها الصلاة ويستغنى بها عن النص العربى وسمم هذا المناخ الجو النفسى للمسلمين تجاه كمال أتاتورك وحركته وكل ما يمت لذلك بصلة وانسحب ذلك على مشروع ترجمة القرآن.

خامسا : أن الترجمة اللفظية كلمة بكلمة من لغة إلى أخرى لأى تعبير كان مستحيلة الإمكان حيث تستقل كل لغة بنظام خاص من القواعد والترتيب ولا يمكن أن توجد ترجمة سليمة فى الواقع إلا إذا كانت تفسيرية أو معنوية أو لفظية بغير المثل، وما يقال من نوع الترجمة الحرفية بالمثل فهو فرض خيالى لا وجود له وبقية الأنواع الأخرى فى واقع الأمر مسميات لشئ واحد ولا يدرك ذلك إلا من خبر الترجمة ومارسها ومن ثم ينتفى الخلاف بين العلماء ويلتقون عند جواز الترجمة التفسيرية للكتاب العزيز. ونتكلم عن حكم ترجمة القرآن بقسميها تفصيلا فنقول:

الترجمة الحرفية

قد عرفت مما تقدم أن الترجمة الحرفية لابد فيها من مراعاة نظم الأصل وترتيبه ثم إبداله بنظم آخر من لغة أخرى يقوم مقامة فى تأدية معناه كما علمت أن الإعجاز خاصة لازما لذات القرآن الكريم فلا يمكن إلتقائها مع بقائه قرآنا

ضرورة أن انتفاء اللازم يلزمة انتفاء الملزوم وغير خاف أن الإعجاز إنما يتعلق بالنظم العربى المنزل من عند الله فيؤخذ من ذلك أمران:

أولهما : أن ترجمة القرآن الحرفية لا يمكن فيها مراعاة نظم الأصل وترتيبة لاستحالة اجتماع الخواص العربية البلاغية فى لغة أخرى ضرورة أن لكل لغة خواص ومزايا لا توجد فى لغة أخرى.

وثانيهما : أن الترجمة الحرفية لا تكون معجزة ضرورة أنها من صنع البشر ولا تحمل خواص الأصل البلاغية ومزاياها.

فالترجمة الحرفية غير ممكنة على وجه يحل محل الأصل من جميع الوجوه ومعنى هذا أن كون الترجمة الحرفية ليست قرآنا ولا تعطى حكم القرآن ولا تحل محله فى هدايته وتلاوته.

عدم الجواز شرعا

بعد معرفة أن ترجمة القرآن الحرفية غير ممكنة عقلا على الوجة الذى تقدم فلا يجوز الاقدام عليها شرعا لما يترتب عليها من المفاسد الآتية :-

١- إيهام أنها حلت محل القرآن فى جميع خصائصة فيترك التعبير بتلاوته ويحصل الإعراض عن التدبر فى معانية ووجوه دلالاته اكتفاء بالترجمة وفى ذلك من الخطر الدينى ما يجب سد بابه.

٢- فتح باب الاختلاف بين المسلمين إذ كل أمة تدعى أن ترجمة القرآن الحرفية أوفى بالغرض المقصود من القرآن من ترجمة غيرها بل التراجم الحرفية فى لغة

واحدة تكون مختلفة إذ قلما تتحد ترجمتان حرفيتان لأصل واحد وذلك باب فساد عظيم يجب سده.

٣- الإخلال بحفظ القرآن الكريم فى نظمة وأسلوبة وتعريضة للتغيير والتبديل وهذا ما لا يجوز أن يقدم عليه المسلمون.

وما وقع من التراجم الحرفية للقرآن وقع فيه خطأ كثير لأسباب ثلاثة:-

١- جهل النقلة.

٢- تعمد بعضهم وبخاصة المبشرين للتحريف والتبديل.

٣- قصور اللغة المترجمة إليها عن الوفاء بما يشبة أساليب اللغة العربية فلهذا كان الخطأ كثيرا عن عمد وغير عمد.

وها هنا سؤالان:

أولهما : أن القرآن نزل لهداية جميع الأمم عربية وغير عربية فكيف تبلغ هدايته لغير العرب وهم لا يعرفون لغته؟

نقول : يفسر تفسيرا عربيا محكما واضحا ثم يترجم لهم هذا التفسير إلى لغاتهم فيهتدون بذلك.

ثانيهما: كيف تكون الترجمة الحرفية غير ممكنة مع أن كثيرا من العلماء قال بجوازها فضلا عن إمكانها وإن كان كثير منهم قال بعدم الجواز وعدم الإمكان فما وجه من قال بالجواز؟

نقول: قد علمت أن الترجمة لغة تطلق على نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى بدون بيان معانيه ، وتطلق على تفسيرية بلغة أخرى فمن قال بالإمكان والجواز

بـل بـالوجوب أراد المعنى الثـانى وهـو الفسـير الـذى هـو الترجمـة المعنويـة أو التفسيرية وهى كافية للمقصود.

ومن قال بعدم الجواز أراد المعنى الأول وهو الترجمة الحرفية وحينئـذن لا يكـون هناك نزاع حقيقى فى المسألة.

ولكن يبقى هنا أن نقول كيف يكون القائلون بالجواز مرادهم الترجمة التفسيرية مع أن علماء الحنفية قائلون بجواز قراءة الترجمة فـى الصـلاة وبعيـد أن يكـون مرادهم بها التفسيرية بل مرادهم الحرفية.

نقول نعم أجازوا الصلاة بها عند العجز بل بعضهم أوجبها فى هذا الحالة علـى أنها رخصة أو بدل عن القرآن العربى مع اتفاقهم على أنها لا تسمى قرآنا وإنما لم يسموها قرآنا لما بيناه من أن الترجمـة الحرفيـة لايمكـن أن تفـى بجميـع مزايـا القرآن فى نظمة وأسلوبة فهم بذلك غير مخالفين لما قدمناه.

الترجمة المعنوية أو التفسيرية

وهى شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى فالترجمة فيها محازية لعبارة التفسـير لا لعبارة الأصل ولذا يشترط فيها ما يأتى

أولا : أن يكون التفسير مستمدا من علوم الحديث وأصول الدين واللغة العربيـة مستجمعا لشرائط التفسير السابقة.

ثانيا : أن يكتب التفسير العربى بجوار ترجمته حتى لا يقع فى وهم أحد أن هـذه ترجمة حرفية للقرآن الكريم.

ثالثا : أن يكون المترجم عالما بأوضاع ودلالات وأساليب اللغتين واللغة المترجم إليها.

رابعا : أن لا يكون معروفا بالهوى والميل إلى عقيدة معينة مخالفة لما جاءت به الشريعة الإسلامية وهذا شرط فى كل من المفسر والمترجم حتى لا يفسر الأول بهواه ولا يترجم الثانى برأيه وعقيدته بل يكون رائد كل منها القرآن وهداه وإذا اجتمعت هذه الشرائط كانت الترجمة التفسيرية مطلوبة شرعا طلب فرض الكفاية لأنها نوع من التفسير ، والتفسير من العلوم المفروض تعلمها على الأمة بل الترجمة التفسيرية للقرآن تتأكد لما يترتب عليها من المصالح المهمة والفوائد العظيمة ولنذكرها على سبيل الإجمال فنقول:

المصالح المهمة التى تترتب على الترجمة التفسيرية

أولا :الدفاع عن القرآن وحماية العقيدة الإسلامية من تضليل المبشرين الذين عمدوا إلى ترجمة القرآن ترجمة حشوها بالأباطيل والأضاليل ليظهروا الدين الإسلامى بمظهر مشوه مملوء بالخرافات وليوقعوا فى وهم من لا معرفة له بأسرار القرآن أنه ممتلئ بما لا معنى له وغرضهم بذلك أن يحجبوا نوره ويخفوا محاسنه عن العقول والبصائر (والله متم نوره) ولعمرو الحق أن الإسلام قد منى بقوتين كفيلتين بوقوفه عن السير فى طريقه الأول وهما (مهاجمة) أعدائه بتحريف القرآن عن مواضعه واستسلام أبنائه وتقاعسهم عن الدفاع عنه و رد ما يرمى به من الخرافت ولوأنهم وقفوا لرد غارت المهاجمين لظل الإسلام سائرا فى طريقة يغزو قلوب أعدائه فيردها إلى حظيرة أبنائه.وغير خاف أنه لو ترجم تفسير القرآن إلى غير

اللغة العربية بمعرفة علماء المسلمين لكان هو الحجة لهم على غيرهم ولكانت الترجمة من أقوى أسلحة الدفاع عن العقيدة الإسلامية ومن أعظم عوامل حمايتها ومما لا ريب فيه أن الدفاع عن الإسلام وحمايته من مهاجمة أعدائه يجب بقوة الحجة والبيان كما يجب بقوة السيف والسنان فترجمة تفسير القرآن لهذا الغرض تكون واجبة.

ثانيا : تبليغ معاني القرآن إيصال هدايته إلى غير المسلمين من غير العرب ليهتدوا بهديه وينتفعوا بما اشتمل عليه من حكم ومواعظ وأوامر ونواهى وتبشير وإنذار ووعد ووعيد وخبر واستخبار واعتبار بقصص الماضين وما تضمنه من علوم وحكم وأسرار.

ولا يخفى أن تبليغ الدين الإسلامي من ينبوعة الأصلي أدعى إلى طمأنينة القلوب وجذب النفوس الجامحة وتبليغ ما جاء به القرآن فرض على علماء المسلمين

قال تعالى ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلم يحذرون﴾ وقال صلى الله عليه وسلم (ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب)

ولا طريق لتبليغه إلى من لا يعرف العربية إلا بترجمة تفسيره إلى لغاتهم ليعرفوا ما فيه من هدى فهذا طريق متعين وبدونه لا يتم التبليغ الواجب شرعا وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب باتفاق الأصوليين.

ثالثا: من فوائد ترجمة التفسير تنقيته مما ملئت به بعض التفاسير من الإسرائيليات والقصص الموضوعة والآراء المصنوعة التى تناقض فى جملتها الأدلة العقلية

والحقائق العلمية فإن كثيرا من المفسرين قد ذكر روايات سقيمة وآراء ضعيفة تنافى ما حث عليه القرآن الكريم فى غير ما آية منه من الحث على اتباع حكم العقل وتحكيمه وتعظيم العلم وتكريمه. وكثير من غير المسلمين الذين لا يعرفون العربية قد يريدون تعرف حقيقة الإسلام فلا يجدون أمامهم إلا هذه التفاسير فيترجم لهم منها قصدا وبغير قصد فيتلقونها على أنها عقائد المسلمين وقد تكون عائقا لهم عن السير فى طريق الهداية.

أما لو ترجم التفسير لكانت الترجمة قاصرة على أصح الأقوال وأحقها بالقبول وأولاها بالنظم الكريم وأقربها إلى مقاصدة الحقة إذ لا يمكن حشو الترجمة بتلك الآراء المختلفة وهذا كما يفيد غير المسلمين الذين لا يعرفون العربية يفيد المسلمين منهم الذين يتخبطون فى الجهالات ويتلقون بعض الآراء على أنها حقائق علمية وأحكام دينية.

وغير خاف أن رفع الأباطيل من طريق الحق وتخليصه مما يحجبه فرض على المسلمين فتكون ترجمة التفسير لهذا الغرض واجبة وقد يقول قائل أن ذلك كما يجب بالنسبة لغير العرب يجب للعرب أيضا فنقول نعم لكن ذلك بالنسبة لغير العرب أوجب وألزم وذلك لأن العرب لهم القدرة على معرفة كثير من التفاسير العربية فيميزون بين الغث والسمين.

وأما من لا يعرف العربية فله من طبيعة عجمته عائق يمنعه عن سعة الاطلاع والوقوف على أصح الآراء لذا كانت العناية بتنقية التفسير بالنسبة له ألزم وأوجب ولا يتأتى ذلك بالترجمة التفسيرية.

رابعا : من فوائد ترجمة تفسير القرآن تقريب معانيه لأفهام المسلمين من غير العرب وتسهيل نظرهم وتعويدهم العمل بما فيه من أحكام ومكارم أخلاق وبخاصة إذا كان التفسير العربى موجودا مع ترجمته فقد يكون ذلك حافزا لهمهم على تعليم اللغة العربية ومعرفة أسرارها.

ومما لاشك فيه أن تسهيل فهم القرآن للمسلمين وتقريبه لأفهامهم من المصالح المهمة فى الدين إذ من أهم قواعد الدين رفع الحرج والمشقة والتسهيل والتيسير وتكليف غير العرب من المسلمين بفهم معانى القرآن والتدبر بآياته على الوجة الحق تكليف بما يشبه المحال فكيف يتدبرون آياته ويتعظون بعظاته وهم لا يعرفون لغته.

وقد حث الله تعالى فى غير آية على تدبره وكيف يتأتى التدبر والاتعاظ والاعتبار بدون فهم وبخاصة لمن لم يعرف لغته وقد قال تعالى ﴿وما جعل عليكم فى الدين من حرج﴾ وقال ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ فهذه الأوجة وغيرها تدل دلالة صريحة على أن ترجمة التفسير مطلوبة شرعاً.

ولهذا قال كثير من علماء التفسير والحديث أن ترجمة القرآن إلى غير العربية كافية عن إنزاله بلغات مختلفة ومرادهم بذلك الترجمة المعنوية لا الحرفية على الوجة الصحيح غير ممكنة ولا يجوز الإقدام عليها ومن ذلك:

أولا: ما قاله الإمام أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى فى تفسيره المشهور عند قوله تعالى ﴿ وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قوله ليبين لهم ﴾ ما نصه فإن قلت : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى الناس جميعا

بقوله ﴿ قل يا أيها الناس أنى رسول إليكم جميعا﴾ بل إلى الثقلين وهم على ألسنة مختلفة فإن لم تكن للعرب حجة فلغيرهم الحجة.

قلت : لا يخلو أما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفى التطويل فتعين أن ينزل بلسان واحد وكان لسان قومه أولى بالتعيين لأنهم أقرب إليه ولأنه أبعد من التحريف والتبديل.

ثانيا : قال الإمام الزمخشرى فى الكشاف عند تفسير الآية المذكورة ما نصه : فأن قلت لم يبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العرب وحدهم وإنما بعث إلى الناس جميعا ﴿قل يأيها الناس أنى رسول الله إليكم جميعا﴾ بل إلى الثقلين وهم على ألسنة مختلفة فإن لم تكن للعرب حجة.فلغيرهم الحجة وإن لم تكن لغيرهم الحجة فلو نزل بالعجمية لم تكن للعرب حجة أيضا.قلت لايخلو إما أن ينزل بجميع الألسنة لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفى التطويل فبقى أن ينزل بلسان واحد فكان أولى الألسنة أن ينزل بلسان قوم الرسول لأنهم أقرب إليه فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر قامت التراجم ببيانه وتفهيمه كما ترى الحال وتشاهدها من نيابة التراجم فى كل أمة من كل أمم العجم مع ما فى ذلك من اتفاق أهل البلاد المتباعدة والأقطار المتنازحة والأمم المختلفة والأجيال المتفاوتة على كتاب واحد واجتهادهم فى تعلم لفظه وتعلم معانية وما يتشعب من ذلك من دلائل الفوائد وما يتكاثر فى إتعاب النفوس وكد القرائح فيه من القرب والطاعات المفضية إلى جزيل الثواب ولأنه أبعد من التحريف والتبديل وأسلم من التنازع والاختلاف.

وقد كتب صاحب الإنتصاف على هذه العبارة ما نصه " جميع الفصل مرضى"- وقليل من النظر فى كل من عبارة النسفى والزمخشرى يؤيد ما بيناه سابقا من أن الترجمة المعنوية مطلوبة لتبليغ هداية القرآن إلى الأمم بدليل قول الزمخشرى "قامت التراجم ببيانه وتفهيمه"

وبدليل قوله "مع ما فى ذلك من ألخ" فهذا يدل دلالة واضحة على أن مراده بالترجمة التفسير بغير اللغة العربية.

ثالثا : قال شيخ زاده فى حاشيته المشهورة على تفسير البيضاوى عند الكلام على هذه الآية ما نصة " والذى يخطر ببالى فى وجه إتصال هذه الآية بما قبلها أنها جواب عما ورد على قوله تعالى ﴿كتاب أنزل إليك لتخرج الناس﴾ وهو أن تعريف الناس للاستغراق لقوله تعالى ﴿قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا﴾ وما أنزل إليه عليه الصلاة والسلام بلسان العرب خاصة فكيف يخرج به جميع الناس من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان فأجاب عنه بقوله وما أرسلنا من رسول إلى الأمم التى اختلفت ألسنتهم إلا بلغة قومه الذى هو منهم إذ لا حاجة إلى أن ينزل إلى كل قوم لأن ذلك ينوب ويكفى عن التطويل االلازم من ذلك فإذا نزل بلسان واحد من الأقوام كان أولى الألسنة أن يدعوهم إلى الحق أولا وينذرهم عن المخالفة والعصيان حتى إذا فهموا منه يبينون ما أرسل به إليهم ويترجمون لغيرهم ما فهموه منه فتنتشر دعوته بذلك إلى أطراف العالم اهـ

رابعا : قال الإمام النووى فى المجموع جوابا عن استدلال الحنفية بقوله تعالى ﴿قل الله شيهد بينى وبينكم وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ﴾

وعن استدلالهم بكتابة سيدنا سلمان الفارسى فاتحة الكتاب بالفارسية ما نصه: وأما الجواب عن الآية الكريمة فهو أن الإنذار يحصل ليتم به وإن نقل إليهم معناه وعن فعل سلمان أنه كتب تفسيرها لاحقيقة الفاتحة اهـ

خامسا : قال الإمام القسطلانى فى شرح البخارى بعد أن ذكر أن المراد بسبعة أحرف فى الحديث سبع لغات لسبع قبائل ما نصه واستنكره ابن قتيبة واحتج بقوله تعالى ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾وأجيب أنه لا يلزم من هذه الآية أن يكون أرسل بلسان قريش فقط لكونهم قومه بل أرسل بلسان جميع العرب ولا يرد عليه كونه بعث إلى الناس كفة عربا و عجما لأن القرآن باللغة العربية وهو بلّغه إلى طوائف العرب وهم يترجمونه لغير العرب بألسنتهم"اهـ

فهذه العبارة كالتى قبلها تفيد أن الترجمة لغرض البيان والهداية بمعنى التفسير جائزة لم يخالف فيها أحد من العلماء لذى أرى أن كثرة نقل أقوالهم تخرجنا عن حد الاختصار فلنكتف بما نقلنا ولنذكر بعض عبارات المانعين ونبين مرادهم فنقول:

أولا : قال الزركشى فى البحر المحيط ما نصه : " مسألة لايجوز ترجمة القرآن للفارسية وغيرها بل يجب قراءته على هيئته التى يتعلق بها الإعجاز لتقصير الترجمة عنه ولتقصير غيره من الألسن عن البيان الذى خص به بدون سائر الألسنة قال الله تعالى بلسان عربى مبين هذا لو لم يكن متحدى بنظمه وأسلوبه وإذا لم تجز قراءته بالتفسير العربى المتحدى بنظمه فأحرى ألا تجوز بالترجمة

بلسان غيره ومن هنا قال القفال فى فتاويه عندى أنه لا يقدر أحد أن يأتى بالقرآن بالفارسية قيل له فإذن لا يقدر أحد أن يفسر القرآن قال ليس كذلك لأن هناك يجوز أن يأتى ببعض مراد الله ويعجز عن البعض أما إذا أراد أن يقرأه بالفارسية فلا يمكن أن يأتى بجميع مراد الله وفرق غيره بين الترجمة والتفسير فقال يجوز تفسير الألسن بعضها ببعض لأن التفسير عبارة عما قام فى النفس من المعنى للحاجة والضرورة والترجمة هى بدل اللفظة بلفظة تقوم مقامها فى مفهوم المعنى للسامع المعتبر لتلك الألفاظ فكأن الترجمة أحالة فهم السامع على الاعتبار والتفسير تعريف السامع بما فهم المترجم وهذا فرق حسن ويؤخذ من هذه العبارة .

أولا :أن المنع مخصوص بالترجمة الحرفية بدليل قوله " التى يتعلق بها الإعجاز" وقوله "والترجمة هى بدل اللفظة بلفظة تقوم مقامها فى مفهوم المعنى ".

ثانيا: جواز الترجمة المعنوية بدليل قوله " يجوز تفسير الألسن بعضها ببعض " وقوله " والتفسير تعريف السامع بما فهم المترجم"

ولاشك أن هذا هو ما نسمية الترجمة المعنوية أو التفسيرية على أن الزركشى قال فى آخر هذه المسألة ما نصه " ورأيت فى كلام بعض الأئمة المتأخرين من المغاربة أن المنع مخصوص بالتلاوة فأما ما ترجمته بالفارسية فأن ذلك جائز للضرورة ينبغى أن يقتصر من ذلك على بيان المحكم منه و القريب المعنى بمقدار الضرورة إليها من التوحيد وأركان العبادات ولا يتعرض لما سوى من ذلك ويؤمر من أراد الزيادة بتعلم اللسان قال وهذا الذى يقتضيه الدليل ثم استدل بكتاب الرسول صلى الله عليه وسلم إلى قيصر" فهذه يفيد أنه متى كان المعنى

واضحا محكما جازت الترجمة الحرفية للهداية لا للتلاوة وهو يشهد لما قدمناه في الترجمة الحرفية من أمكانها متى كان المعنى محكما.

ثالثا : قال النيسابورى في تفسيره بعد أن ذكر مذهب الشافعية والحنفية في جواز قراءة الفاتحة في الصلاة بترجمة القرآن وعدم جوازها ما نصه:

فأن النظم المعجز جزء من ماهية القرآن والكل بدون الجزء مستحيل اهـ

فهذا يدل على أن الخلاف إنما هو في الترجمة الحرفية لا التفسيرية وأنت إذا تتبعت أقوال المانعين تراهم دائما يعللون بإعجاز القرآن وبلاغته وهلم جرا من خواصه المتعلقة بنظمة فقد تلخص:ـ

١ - أن الترجمة التفسيرية لا خلاف في جوازها وفي الحاجة إليها.

٢ - الترجمة الحرفية بالنسبة لأكثر آيات القرآن الكريم غير ممكنة وغير جائزة.

٣ - الترجمة الحرفية بالنسبة لبعض الآيات المحكمة والواضحة المعنى وذات المعنى الواحد ممكنة وجائزة للبداية لا للتلاوة.

٤ - النزاع في هذه المسألة في الحقيقة ليس حقيقا بل هو نزاع لفزى لأن حجة المانعين إنما تناسب الترجمة الحرفية وحجة المجوزين إنما تناسب الترجمة التفسيرية ومنشأ الاشتباه إنما هو من إطلاق لفظ الترجمة على كل منهما وهذا الذى بيناه إنما هو في الترجمة لغير الصلاة وأما بالنسبة للصلاة فالنزاع فيها حقيقي ومحله إنما هو الترجمة الحرفية فحسب إذ ليس هناك قائل بجواز القراءة في الصلاة بالترجمة التفسيرية وذكر الأقوال بالنسبة للصلاة مبسوط في كتب الفقه فلا حاجة بنا به إلى ذكره إنما أقتصرنا على الكلام في الترجمة لغير الصلاة لأنه هو

الذى تمس إليه الحاجة فى هـذا الزمـان وا لله الموفـق للصـواب وهـو الهـادى إلى سواء السبيل.

القصة القرآنية

القصة بمعناها اللغوى يقول صاحب مختار الصحاح فى مادة قصص (قص) أثره تتبعه ومنه قوله تعالى ﴿فارتدا على آثارهما قصصا﴾ (١) .

وقال صاحب المصباح المنير : وقصصت الخبر قصا من باب قتل حدثت به على وجهه والاسم القصص بفتحتين وقصصت الخبر ففهمته. وهذا المعنى اللغوى يدور على معنى التتبع بالأثر والنقل بالخبر والشأن الذى مضى مع مراعاة الدقة فى النقل وحكاية الواقع وتحرى الصدق عند ادائه وروايته.

والمعنى الاصطلاحى: هى سرد لحوادث واقعية أو مصطنعة بأسلوب جذاب الهدف منه بيان المثل الأخلاقية أو الإصلاح الاجتماعى.

وعليك أن تعرف أن القرآن الكريم فى قصصه لا يحكى إلا الواقع ولا يقص إلا الحق الصراح وأن تأثير القصص القرآنى تأثير ذاتى ناشئ من حكاية الواقع الذى لا مرية فيه ولا شك يعتريه ومن جلال القول والقائل وعظمة الكلام والمتكلم وأن تأثيره على النفوس حاصل للمؤمنين به وللكافرين قال تعالى مبينا تأثيره فى المؤمنين ﴿الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله﴾ (٢)

وأما عن غلبة تأثيره على الكافرين فهو ماحكاه الله عنهم من تواصيهم بعدم سماعه مخافة ذلك التأثير قال تعالى ﴿وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون﴾(٣)

---

(١) سورة الكهف آية ٦٤

(٢) سورة الزمر آية ٢٣

(٣)سورة فصلت آية ٢٦

عناصر مقومات القصة

١- الأسلوب الجذاب الأخاذ الذى يسترعى الانتباه.

٢- الغاية التى يهدف إليها الأديب من وراء الحوادث والأشخاص فى القصة ولابد أن يكون الهدف ساميا نبيلا.

٣- ترابط الأحداث وتشابكها بحيث يتابعها القارئ وهو فى شوق إلى معرفة النهاية ليعرف كيف تنحل عقدة القصة وكيف تكون النهاية.

٤- الأشخاص الذين يقومون بعرض حوادث القصة كل بما يناسبة الأداء.

٥- العنصر الزمانى والعنصر المكانى اللذان يتمكن بهما الأديب القصصى من وضع كل من الحوادث والأشخاص فى إطارها الطبيعى.

ومماتقدم من معنى القصة اللغوى والاصطلاحى نجد أن الصلة وثيقة والمناسبة ظاهرة بينهما ذلك لأن معنى كل يدور حول التتبع والنقل واقتفاء الأثر أيا كان إلا أن المعنى الاصطلاحى تتبع من نوع خاص يشتمل على عناصر ومقومات وأسلوب وهدف وغاية، وذلك لأن المعنى الاصطلاحى أخص من المعنى اللغوى.

القصة العربية قديمة

لقد صحبت عناصر القصة الإنسان منذ وجوده ، ورافقته منذ نشأته الأولى على الأرض بل قبل هبوطه إليها ونزوله عليها ، فما حصل لآدم عليه السلام فى الملأ الأعلى من سجود الملائكة تكريما له وحفاوة به وامتناع إبليس من السجود له حقدا عليه من تفضيل الله له بتعليمة الاسماء كلها ثم إباحة ثمار

الجنة له ما عدا الشجرة التى حرمها الله عليه ثم إنهاء قصته فى ذلك الملأ الأعلى باهباطة إلى الارض لسابق علمه تعالى وحكمته يعتبر قصة صحبت أول إنسان خلقة الله لعمارة الأرض واستخلافة فيها بنص القرآن الكريم.

كذلك ما كان من شأن هابيل وقابيل وتنافس قابيل على زواج توأمته وحسد أخية هابيل الذى رضى بشريعة أبيه آدم عليه السلام من زواجه بأخت توأمة أخية قابيل ، ثم ما كان من بطش قابيل به نتيجة عدم الرضا بأمر أبيه وعصيانه لربه يعتبر أيضا أول قصة فوق الأرض.

ومن هذا تبين أن عنصر القصة قديمة قدم الإنسان وكيف لا وهى وليدة الأحداث ونتيجة المشاكل والأهوال والتنازع بين الإنسان وأخية الإنسان وبينه وبين الطبيعة بأرضها وسمائها وسهولها وجبالها وبحارها وناطقها وصامتها ، وبينه وبين ما تراه عينه وما لا تراه مما يشير إليه الخوف فى اعتقاده أو يصيبه بالآلام والمضرات فى نظره وما هذه الأساطير التى وجدت فى مخلفات الفراعنة واليونان وبابل وآشور إلا قصص غامضة ظهرت فى نقوش أو رسوم وركامات حسب ما تمليه ظروف وطبيعة البيئة.

ولما كانت القصة رفيق الإنسان منذ وجوده وملازمة له حيث كان يستريح إليها ويطمئن إلى تأثيرها وسحرها وينقاد معها إلى غايتها ، كان إيراد القصص فى القرآن الكريم باعتبارة وسيلة إلى هداية النفس وانقيادها إلى الرسل ، وما إلى ذلك إلا لأن القصة أقدم صديق للإنسان تقوده إلى الغايات راضيا مستسلما مطمئنا.ونستخلص من كل ما تقدم بشأن القصة أن العرب كغيرهم من الناس والشعوب لا يمكن أن يعيشوا بدون أحداث وأهوال ، ولا يمكن أن

ينعزلوا عن الطبيعة وقسوتها ، ولا يمكن كذلك أن تزايلهم القصة أو تخلو حياتهم منها. وإذا كانت الطبيعة ومظاهرها هى المكان الذى تعشعش فيه القصة وتفرخ فإن حظ العرب من القصة أكثر من غيرهم فهناك الحياة فى أقصى أحوالها وأكلخ وجوهها ولذا كانت حياة العرب فى جاهليتهم قصة طويلة مثيرة فى صراعها. وفى السيرة النبوية أن النضر بن الحارث كان يقص على قريش أحاديث رستم ثم يقول وأشار القرآن الكريم إلى أساطير الأولين التى كان يتناقلها العرب قبل القرآن والتى ظن العرب أن قصص القرآن شبيه بها ونفى أنها من أساطير الأولين.

ويتضح لنا من القرآن الكريم أن القصص قد ازدهر فى ذلك العصر فكلمة الأساطير التى وردت فى القرآن الكريم تفسر بأنها ما سطره الأولون وكثير مما لا أصل له وهذا يدل على أن الأساطير كان يجمتع لها عنصران : الأول أنها مكتوبة والثانىهو الوضع والتخييل فقد ورد أن أول من قص فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم تميم الدارى إذ أستأذن عمر فى ذلك فأذن له فكان يقص فى يوم الجمعة عقب الصلاة وقد أذن عثمان بن عفان رضى الله عنه أيام خلافته لتميم الدارى رضى الله عنه أن يقص على الناس يومين فى الأسبوع بدل من يوم كما كان فى عهد عمر.ودخل على رضى الله عنه أيام خلافته ذات يوم مسجد البصرة يتعرف ماذا يقول القصاص فلما جاء إلى حلقة الحسن البصرى أعجب به وأجاز له أن يقص وأقص جميع ما عداه من القصاصين.

وفى عهد معاوية رضى الله عنه أزداد نصيب القصص من الوقت والاقبال عليه

يروى المسعودى أن معاوية كان يستمر إلى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامها والعجم وسياستها لرعيتها.

أهم مميزات القصة العربية

إن القصة العربية القديمة توأم للأحداث التى تسجلها أو إعادة للأحداث بدون زخرف القول وزوره فلا إغراق ولا إيغال فى الخيال حتى يظنها القارئ أو السامع بعيدة عن الصدق قريبة من الكذب كما يشاهد ذلك فى قصص اليونان والهند ولقد عزف العربى عن هذا اللون الخيالى أعتزازا بشخصيته وتمسكا بشجاعته وتفاخرا بحميته وهذه الواقعية تظهر واضحة فى الشعر القصصى القديم مثل شعر عنتر الذى يصف فيه شجاعته وأحداث معاركه.

وبذلك يعرف كيف يلتزم العربى الصدق فى قصصه ولا يتعداه لأن مجافاة الصدق عيب ثم ينزل إليه القرآن يرغب فى الصدق ويلعن الكاذبين ثم تكون قصصه غير واقعية على خلاف عادة العرب فى قصصهم سبحانك هذا بهتان عظيم.

مقومات ومكونات القصة فى القرآن الكريم

للقصة مكونات لابد منها وهى الأسلوب - الزمان - المكان - الأشخاص وأتكلم عن هذه المكونات من خلال قصة آدم عليه السلام وكل ما ينطبق عليها ينطبق على ما عداها.

١- الأسلوب :

للأساليب الأدباء فى عرضهم للقصة وأحداثها وأشخاصها طريقتان :ـ

الأولى : أن يهيمن الكاتب على أشخاص القصة ويتكلم بلسانهم وفى هذه الطريقة يكون موقف الكاتب موقفا معينا بأن يقول فى الصياغة قال فلان ويسمية باسمة أو يذكره بصفته.

الثانية : أن يرسم القاص العرض والأداء فى القصة للأشخاص الذين يعدهم لأداء المشاهد بعد أن يرسم لهم المحادثات وفى هذه الطريقة تختفى شخصية الكاتب وتختفى كلمة قال وهذه الطريقة أدخل فى الصدق وأبلغ فى الأمانة وابعد عن التمثيل.

وطريقة القرآن هى طريقة النقل والحكاية بالأسلوب المعجز الذى لا يدانية أى أسلوب ، أسلوب نقل الحوادث والانفعالات والحوار حتى أنه لا يشعر السامع أنه مشاهد وذلك بفضل ما إمتاز به هذا الأسلوب من خلق الحياة فى القصة وبعث الحركة والنشاط بين الجمل ، وانظر إلى قصة آدم فا لله يقول﴿وإذ قال ربك للملائكة أنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال أنى أعلم ما لاتعلمون﴾ وفى هذه الآية تجد لفظ قال وقالوا وكذا فيما بعدها من الآيات وتجد فيها ظاهر ما فى نفوس الملائكة من إشفاقهم من معصية الله تعالى فى الأرض وترى فيها تكريم الله لآدم بتعليمه الاسماء وأمر الملائكة بالسجود به وتكبر إبليس وعناده وعدم سجوده ثم ما كان فى النهاية من إهباط آدم خليفة إلى الأرض. كل ذلك بأسلوب بلغ النهاية فى الفصاحة والبلاغة والإيجاز.

٢-الزمان

الزمن من الدعائم الأساسية التى تتكون منها القصة وهو عنصر هام فيها إذ لابد للحوادث من ظروف تقع فيها وهى الزمان و لكل حادثة وقتها، والذى يلاحظ فى القصص القرآنى أن الزمن فيه لا يخضع لضابط بل هو زمن تجرى فيه الأمور وهومن قبيل الزمن الماضى الذى لم يوضح كم بيننا و بينه من السنين؟ لأن بيان ذلك ليس له مدخل فى أخذ العبرة و اقتناص العظة ولا يلقى ضوء فى الغالب على بعض أسرار القصة فإن كان بيان المدة له مدخل فى العظة و العبرة أو يؤدى إلى فائدة لاتكتسب ولو لم تذكر تلك المدة فإن القرآن لا يهملها لأن كمال القصة لا يتم إلا بذلك كما فى قوله تعالى ﴿ فلبث فى السجن بضع سنين ﴾ فذلك الزمن يدل على طول مكث يوسف النبى البرئ وعلى قوة إيمانه وجميل صبره أمام المحن والشدائد بل يزيد ويقوى ويدعو إلى ربه حتى فى السجن ﴿ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار﴾ .

كما تدل المدة الطويلة على إهمال شأنه وعدم التحقيق فى أمره وفيما نسب إليه وعدم التحقيق فيما رمى به الا بعد زمن طويل من سجنه وطول مدته فى السجن لم يزده الا إيمانا وثباتا على الحق فلم يسرع بإجابة الداعى له لمقابلة الملك بل قال له ﴿ ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم﴾ يوسف ٥٠.

وذكر الزمان معينا فى قوله تعالى ﴿ وجاءوا أباهم عشاء يبكون﴾ يدل على كذبهم ، والزمن الملاحظ فى قصة آدم عليه السلام زمن ضمنى تتضمنه

أحداث القصة ومشاهدها وعدم ذكر الزمن صراحة لا يؤثر فى مضمون القصة لأنه مراعي فيها دائما فى كل أحوالها ففى قصة آدم عليه السلام نلمح الزمن المطلق من قوله تعالى ﴿ فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين﴾ ومن قوله ﴿وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين﴾ ومن قوله تعالى ﴿ فوسوس لهما الشيطان﴾.وغير ذلك من الأفعال الماضية التى تدل على وقوع الحدث فى زمن مضى.

٣- المكان :-

المكان أحد المقومات الهامة فى القصة القرآنية الا أنه يلى الزمان فى الأهمية ؛ لأن الزمان يتعدد بتدد الأحداث ولأن حركة الزمن لا تتوقف بخلاف المكان فإنه لا يلزم من تعدد الحوادث تعدده فقد ينمو الحدث ويتطور وتتعدد المشاهد فى مكان واحد لا يتغير كما فى قصة آدم عليه السلام.

والقرآن الكريم لا يذكر المكان فى القصة مشخصا معرفا الا إذا كان لذلك المكان أثر فى النفوس ومنزلة فى القلوب وله عمل فى أخذ العظة والعبرة من القصة كما هو الحال فى قصة آدم عليه السلام فان المكان فى هذه القصة لابد من ذكره لأن الجنة هى المكان الذى جرت فيه أطوار القصة وهى المكان المرغوب، والنزل المحبوب الذى ينشدها العاملون وتهفو إليها قلوبهم فكان لها بتلك المنزلة أثر كبير فى أخذ العبرة من القصة حيث كان آدم عليه السلام فيها ينعم بنعم الله الوافرة ثم أهبط منها إلى الأرض لأمر قضاء الله تعالى وقدره

وهو عمارة الأرض واستخلاف الإنسان فيها ، وأيضا فان النفس تهفو إلى معرفة المكان الذى جرت فيه قصة آدم عليه السلام لما فيها من أمور عجيبة ، فإذا كان للمكان فى القصة أثره الروحى فى التوجيه واقتناص العبرة أو بيان منزلة لا يهمله القرآن الكريم بل يبينه ويوضحه ويعرفه وذلك كما فى قصة الإسراء والمعراج فقد ذكر سبحانه فيها المسجد الحرام والمسجد الأقصى وسدرة المنتهى لمكانة هذه الأماكن فى النفوس والقلوب ولبيان فضل نبيه صلى الله عليه وسلم ومنزلته السامية التى لم ينلها أحد من الأنبياء والمرسلين.

وكما فى قصة يوسف وموسى عليهما السلام فقد ذكر سبحانه مصر مكانا تجرى فوقه القصتان بما فيهما من الأمور العجيبة لما أن النفس تشرئب لمعرفة المكان الذى جرى فوقه ما جرى ولتخليد ذكراه فى العالمين وإعلاء شأنه بذكره فى القرآن الكريم ، هذا والناظر فى القصص القرآنى يلاحظ على عنصر المكان الملاحظات الآتية:-

١- أهمية المكان فى نمو القصة وتكوينها وفى جلب النفوس إلى مواضع العظة والعبرة.

٢- ليس له أبعاد ولا مساحات تحده ولا يذكر باسمه الا لحكمة تقتضى ذلك.

٣- لاختياره فى القصة علاقة بما يجرى فوقه من الأحداث لأن المكان هو البيئة الصالحة لنمو القصة وتمامها.

٤- واختيار المكان أيضا يتناسب مع الحكمة لإيراد القصة فإذا كانت معجزة موسى عليه السلام هى اليد والعصا فالمكان المناسب لإظهار تلك المعجزة على أكمل وجه وأتمه هو مصر حيث اشتهر فيها سحرة فرعون بسحرهم.

٤- الأشخاص :-

الأشخاص مقوم من مقومات القصة وركن من أركانها فالكشف عن الأشخاص بأسمائها ومسمياتها وصفاتها من المناظر الهامة ذلك لأن ذكر الشخص باسمه في القصة يبعث فيها الحياة والحركة والنشاط ويسترعى الإنتباه ويشد السامع إلى الإلتفات إليها وإستماع الحوار فيها.

وقد يذكر الشخص بوصفه لأنه يقوم مقام اسمه في التعريف به وقد يذكر الوصف لما له أهمية في الكشف عن حقيقة الشخص وأهم مميزاته وذلك كما في قصة موسى وفتاه العبد الصالح الذى أراد موسى أن يتعلم منه فقد عرف سبحانه ذلك العبد الصالح بوصفه المخصص له والمميز له عما عداه حيث يقول سبحانه في تلك القصة ﴿فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما﴾(١)

والأشخاص في القصص القرآني هم كما أخبر الله عنهم ليس في أسمائهم رمز لمعنى غير مسمياتهم ذلك لأن القصص القرآني هو القصص الحق خلافا لما ذكره السيد رشيد رضا تباعا لأستاذه الإمام محمد عبده في تفسير المنار عند تفسير قوله تعالى ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا إبليس ﴾ حيث يرى أن المقصود من لفظ الملائكة الرمز والإشارة إلى القوى الروحانية المنبثة في الأرض والتى بها قوامها ونظامها ويرى أن المقصود بتعليم آدم الأسماء كلها أن الإنسان خلق مستعدا بعقله وتكوينه إلى تسخير هذه القوى والتصرف فيها لعمارة الأرض فتعليم الأسماء رمز لذلك التسخير وسجود الملائكة رمز

----

(١) سورة يوسف آية ٦٥.

لخضوع تلك القوى للإنسان أما إبليس فهو رمز لتلك القوى المستثناة التى لا يقدر الإنسان على تسخيرها وهو قد رأى هذا بناء على تفسير من فسر الفكر والخاطر الحسن ملكا والخاطر السئ شيطانا.

حيث يقول فـإذا صح الجرى على هـذا التفسير - يشير إلى تفسير الفكر والخاطر الحسن ملكا والخاطر السئ شيطانا - فلا يستبعد أن تكون الإشارة فى الآية إلى الله تعالى لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التى بها قوامها ونظامها وجعل كل صنف من القوى مخصوصا بنوع من أنواع المخلوقات لا يتعداه ولا يتعدى ما حدد له من الأثر الذى خص به خلق بعد ذلك الإنسان وأعطاه قوة يكون بها مستعدا للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها فى عمارة الأرض وعبر عن تسخير هذه القوى له بالسجود الذى يفيد معنى الخضوع والتسخير وجعله بهذا الإستعداد الذى لا حد له والتصرف الذى لم يعط لغيره خليفة الله فى أرضه لأنه أكمل الموجودات فى هذه الأرض.

واستثنى من هذه القوى قوة واحدة عبر عنها بإبليس وهى القوة التى لزها الله بهذا العالم لزا وهى التى تميل بالمستعد للكمال أو بالكمال إلى النقص وتعارض مد الوجود لترده إلى العدم أو تقطع سبيل البقاء وتعود بالموجود إلى الفناء أو التى تعارض فى إتباع الحق وتصد عن عمل الخير وتنازع الإنسان فى صرف قواه إلى المنافع والمصالح التى تتم بها خلافته(١)

ونقول إن هذه التواءات فى الفهم والإفهام لكتاب الله تعالى فحقيقة الملائكة

----

(١) تفسير القرآن الحكيم المعروف بتفسير المنار ص٢٦٩.

تخالف كل حقيقة سواها وكذلك حقيقة ابليس وحقيقة السجود والآباء عن السجود والألفاظ الشرعية يجب أن تحمل حقائقها الشرعية كما هو مقرر فى علم أصول الفقه، والجرى وراء الرمز والإشارة والتمثيل يؤدى إلى ضياع الحقائق الشرعية ويحيد بنا عن الإسلوب الأمثل فى تفسير كتاب الله تعالى حيث ننأى بهذا الجرى وراء الرمز عن مقتضيات اللسان العربى الذى نزل به القرآن الكريم وحيث تخالف به الإجماع الذى لا يسعنا الإ رفض ما سواه.

فقد قال القرطبى عند تفسير الوزن بسورة الأعراف (والوزن يومئذ الحق) قال ابن عمر توزن صحائف الأعمال وهو الصحيح ثم ذكر مجاهد والضحاك والأعمش أن الوزن والميزان بمعنى العدل وذكر الوزن ضرب مثل به ثم ذكر أن الزجاج قد قال (والأولى أن يتبع ما جاء فى الأسانيد الصحاح من ذكر الميزان قال القشيرى:

وقد أحسن ـ أى الزجاج ـ فيما قال إذ لو حمل الميزان على هذا فليحمل الصراط على الدين الحق والجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجساد والشياطين والجن على الأخلاق المذمومة والملائكة على القوى المحمودة وقد أجمعت الأمة فى الصدر الأولى على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل وجب الأخذ بالظاهر نصوصا)

وقد قال صاحب سيكلوجية القصة فى القرآن (كل ما ورد فى القرآن من قصص لا يحيد عن الحق لأنه بنى على الحقائق الثابتة الخالصة من زخرف القول

وباطلة ولا يتجافى الصدق لانـه لم يكـن للخيـال أو الوهـم أو المبالغـة مدخـل إليه)(١)

ثم يقول تحت عنوان (انتفاء الأسطورة أو الرمز) ومن هنا يتضح أنـه لا مجـال للأسطورة فى القرآن لانه كلمة الله ﴿ لا يأتيه البـاطل مـن بـين يديـه ولا مـن خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾ وما وقع فيه صاحب المنار من إعتبـار الرمـز فـى القرآن الكريم وقع فيه كثير من المفسرين مثل الزمخشرى حيث فسر آخر الفتـح بقوله : أخرج شطأه بأبى بكر وآزره بعمر واستغلظ بعثمان واستوى على سوقه بعلى(٢)

وممن وقع فى الرمزية كثير من أصحاب الفرق وعلى رأسهم الشيعة بفرقهم فقـد فسر الشيعة كما ذكر الأستاذ محمد عزة دروزة فى كتابة القرآن المجيـد البحريـن فى مرج البحرين بعلى وفاطمة واللؤلؤ والمرجان بالحسن والحسين(٣)

وذكر صاحب بدع التفاسير أنه فسروا الأسماء كلها بأسماء الأئمة الاثنـى عشـر على ومن بعده (٤)

---

(١) سيكلوجية القصة فى القرآن د/ التهامى ص١٥٦.

(٢) الكشاف ج٤ ص ٥٥١.

(٣) القصص القرآنى المجيد لعبد الكريم الخطيب ص ٣٤٣.

(٤) بدع التفاسير للشيخ الغمارى عند ذكر بدع التفسير فى سورة البقرة.

أغراض القصة وأهدافها فى القرآن الكريم

وردت القصة فى القرآن الكريم لتحقيق أعراض دينية كثيرة يعسر استقصاؤها كلها وقصة أدم عليه السلام قد اشتملت على كثير من هذه الأغراض وإنما كانت أغراض القصص القرآنى وأهدافه كثيرة جدا لأنها تكاد تشتمل على جميع الأغراض التى جاء بها القرآن الكريم فمثلا إثبات النبوة والرسالة وبيان قدرة ا لله الواحد القهار وإنذار الكافرين وتبشير المؤمنين وإثبات وحدانية ا لله سبحانه وبيان عاقبة عمل الخير ونهاية عمل الشر وتأييد الصابرين وبيان نتيجة الجزع والشكر والبطر وغير ذلك من الأغراض الدينية قد عرضت لها القصة القرآنية وبينته وكانت الطريق الموصل إليه لاقتناص العبرة والعظة.

وسأعرض فى هذا المبحث لجملة الأغراض التى إشتملت عليها قصة آدم عليه السلام ثم لما تيسر من أغراض أخرى من بقية القصص القرآنى فأقول وبا لله التوفيق.

أولا : الأغراض الدينية فى قصة آدم عليه السلام

١- اثبات الوحى والرسالة:

وهو أهم أغراض القصص القرآنىعامة فرسولنا الكريم محمد صلى ا لله عليه وسلم كان أميا لا يعرف القراءة ولا الكتابة و لم يتتلمذ على أحد و لم يجالس علماء أهل الكتاب من اليهود والنصارى ثم جاءنا بالقرآن الكريم الذى إشتمل على قصة آدم عليه السلام وعلى ما سواها من القصص والذى إشتمل علىالكثير من العلوم والمعارف فى شتى شئون الحياة الدينية والأخروية.

فدل ذلك على أنه رسول الله حقا يوحى إليه بهذا القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولقد أهتم القرآن الكريم بهذا الغرض فنبه عليه وأشار إليه صراحة لأن إثبات الوحى والرسالة يتوقف عليه كل الأغراض الدينية والأحكام الشرعية وهذا الغرض قد ينص عليه سبحانه فى مقدمة القصة القرآنية أحيانا وذلك كما فى سورة ص قبل قصة آدم عليه السلام حيث قال سبحانه ﴿قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون ما كان لى من علم بالملا الأعلى إذ يختصمون إن يوحى إلى الا إنما أنا نذير مبين إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين﴾(١) وكما فى أول قصة يوسف وأول سورة القصص وقد ينص سبحانه على هذا الغرض فى آخر القصة كما هو الحال فى قصة نوح عليه السلام بسورة هود حيث يقول سبحانه بعد نهاية القصة ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين﴾(٢) وكما هو الحال فى آخر قصة موسى بسورة القصص حيث يقول سبحانه ﴿وما كنت بجانب الغربى إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين﴾(٣) وحيث يقول سبحانه فى القصص أيضا ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾

٢- بيان فضل الله سبحانه على نبيه آدم عليه السلام حيث بين سبحانه فى قصته أنه خلقه بيديه وسواه ونفخ فيه من روحه وعلمه الأسماء كلها وأسكنه

----

(١) سورة ص آية ٦٧-٧١.

(٢) سورة هود آية ٤٩.

(٣) سورة القصص آية ٤٤.

جنته ، وأسجد له ملائكته وفضله عليهم وهذا كله من عناية الله بـه وتكريمه له. وهذا الغرض وهو تكريم الرسل ظاهر فـى قصة كـل رسـول فتكريـم الله تعالى لأنبيائه ورسله ظاهر فى قصصهم وعلى القمة منهم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذى حباه الله بكثير من النعم والخصائص والمعجزات الباهرة.

٣- تنبيه بنى آدم إلى وجوب مخالفة الشيطان والحذر من إغوائه وكيده وعداوته وبيان أنه لهم عدو مبين لأنه كاد لأبيهم آدم وتسبب فى إخراجه من الجنة وأقسم له كذبا أنه له من الناصحين ، كل هذا موجب للحذر منه وقد قال سبحانه ﴿ يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾(١)

وقد تكرر هذا الغرض بتكرار القصة كما تكرر فى غيرها من أى القرآن الكريم.

٤- بيان أن قدرة الله تعالى لا يعجزها شئ ولا تخضع لناموس أو قانون كونـى فهو سبحانه يخلق الأشياء ويوجدها بسببها العادى وبدونه لأنه تعالى هو الذى خلق السبب والمسبب وقد خلق سبحانه آدم عليه السلام بشرا سويا على خلاف قانون الخلق فى بنيه من بعده فهو مخلوق عجيب خلق بدون أب وأم خلقه من طين ونفخ فيه من روحه فصار بشرا سويا وهذا الغرض ظاهر أيضا فى قصة عيسى عليه السلام وفى قصة أهل الكهف وقصة إبراهيم عليه السلام مع الطير وقصة الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها.

----

(١) سورة الأعراف آية ٢٧.

٥-وجوب التسليم لأمر الله والخوف من مكره تعالى لأنه لا يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون فهذا إبليس كان فى الأول يختال فى رداء طاعته ويرفل فى حلل عبادته وينعم بالزلفى من الله وبالقرب من مولاه ثم يصير أمره إلى أسوأ حال ويئول إلى شر مآل لما تمرد أمر من لا يعيد سواه.

والعبرة فى حال إبليس أنه من العاقل الا يأمن مكر الله وعليه أن يعتصم دائما بحبل الله وأن يتمسك بشرعه وطاعته وأن يطلب من الله السلامة فى الدين والدنيا ويوم يقوم الأشهاد ومما يدل على وجوب التسليم لأمر الله تعالى وعدم التقدمة بين يديه غير ما كان من إبليس قوله تعالى لملائكته لما قالوا ﴿أتجعل فيها من يفسد فيها﴾ ، ﴿ إنى أعلم ما لا تعلمون﴾وقوله تعالى ﴿ألم أقل لكم أنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾.

وهذا الغرض ظاهر أيضا فى كل القصص حيث يتبين نهاية من أسلموا لله وسلموا له أمره ونهاية من عصاه ونازعه أمره ولا يظلم ربك أحدا وما أحسن قول الألوسى بشأن إبليس فى قصة آدم (وكم أرقت هذه القصة جفونا وأراقت من العيون عيونا فان إبليس كان مدة فى دلال طاعته يختال فى رداء مرافقته ثم صار إلى ما به القلم جرى).

٦- تهوين ما يعانية صلى الله عليه وسلم من محن وعناء فى سبيل الدعوة إلى الله فإن آدم عليه السلام أول الأنبياء والرسل وقد إبتلى وإمتحن وكان من شأنه ما قصة القرآن الكريم.(١)

------

(١) حاشية الصاوى على الجلالين ج١ ص٤٠

ثانيا : بعض الأغراض الأخرى في غير قصة آدم عليه السلام

هناك أغراض أخرى للقصة القرآنية فى القصص القرآنى غير ما تقدم فى قصة آدم عليه السلام وإليك ما تيسر من تلك الأغراض :-

١- بيان أن أصول الأديان السماوية كلها من عند الله تعالى فكل الرسل بعثوا مبشرين ومنذرين وداعين إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالألوهية والعبادة من أول آدم عليه السلام إلى رسولنا خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

وفى هذا البيان لفت لنظر المشركين المناوئين للدعوة وإفادة لهم بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كسائر سابقيه من المرسلين جاء داعيا إلى توحيد الله تعالى فليس هو بدعا من الرسل وهو مصدق لما بين يديه من كتب ومبين أن المؤمنين بالله والمؤمنين برسوله صلى الله عليه وسلم هم الناجون الفائزون وأما الكافرون فهم الناكبون عن الصراط المستقيم الذين استحقوا سخط الله وعقابه فى الدنيا والآخرة.

وهذا الغرض يبدو فى جميع قصص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فبعد أن يعرض سبحانه ذكر الدعاة إلى الله من الرسل فى سورة الأنبياء من أول قوله تعالى ﴿ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرى للمتقين﴾ إلى قوله تعالى ﴿والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين﴾

يقول سبحانه ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون﴾(١)

٢- بيان أن الدين كله يدعو إلى أصل واحد وبيان أنه كله جاء من عند الواحد الأحد الله رب العالمين وهذا الأصل الواحد هو التوحيد الخالص ونبذ المعبودات الباطلة وهو العقيدة الأساسية لكل دين جاء من عند الله وهذا الغرض يبدو واضحا فى سورة الأعراف عند عرض قصص الأنبياء المتوالية حيث قال سبحانه ﴿لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾، ﴿وإلى عادا أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴾، ﴿وإلى ثمود أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾(٢)

هذا هو التوحيد الخالص الذى اشترك فى الدعوة إليه جميعا من أولهم إلى آخرهم قال تعالى ﴿شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصيناه به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه﴾(٣)

وفى هذا الغرض بيان أن المشركين والكافرين ابتعدوا بكفرهم بالله وبرسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك الأصل الواحد فهم مستحقون للانتقام والعقاب من الله تعالى لأن توحيد الله تعالى ونبذ المعبودات الباطلة جاء على لسان كل رسول.

----

(١) سورة الانبياء الآيات ٤٧ إلى ٩٢.

(٢) الأعراف الآيات ٥٩-٦٥-٧٣-٨٥.

(٣) الزخرف ١٣.

٣- بيان أن مقابلة الأنبياء بالسفه من أقوامهم قدر مشترك بين جميعهم وأن طريقهم في الدعوة إلى الله واحدة فضلا عن أن الدين من عند إله واحد وأنه قائم على التوحيد الخالص ولهذا الغرض يجئ لكثير من قصص الأنبياء على وتيرة واحدة تبين منهج الأنبياء في الدعوة إلى الله وما يقابلون به من أذى وإنكار كما هو الحال في سورة هود عليه السلام التي قال الله فيها لبيان هذا الغرض ﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه أني لكم نذير مبين ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين﴾ إلى قوله تعالى ﴿قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين قال إنما يأتيكم به الله إن شاء وما أنتم بمعجزين﴾ (١) وعلى هذه الوتيرة في الدعوة إلى الله من نوح عليه السلام والإنكار والجحود والسفه من قومه جاءت قصة هود وصالح ولوط وشعيب عقب قصة نوح عليه السلام.

٤- تحقيق ما بشر به سبحانه وأنذر وبيان أن وعده تعالى لا يتخلف وذلك ببيان بعض ما وقع فعلا مما بشر به وأنذر كما جاء في سورة الحجر قال تعالى ﴿ نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم ونبئهم عن ضيف إبراهيم ﴾ ، إلى ﴿فبم تبشرون﴾ وهنا تتحقق البشرى لإبراهيم عليه السلام ﴿قالوا بشرناك بالحق﴾.

----

(١) سورة هو آية ٤٨

وبعد هذا يقول سبحانه ﴿فلما جاء آل لوط المرسلين ﴾إلى قوله تعالى ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين ﴾ وهنا يتحقق وعده سبحانه بنجاة لوط ومن آمن به وهلاك قومه بالعذاب الأليم قال الله تعالى ﴿فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾.

٥- بيان أنه تعالى ينصر رسوله فى النهاية ويصرع أعداءه بعد الإعذار والإنذار لهم على ألسنة رسله وفى هذا تثبيت لقلب رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذكاء حماسه ونشاطه من أجل الدعوة إلى الله والثقة بنصره وإعلاء دين الله وإظهاره قال تعالى ﴿وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾(١) وهذا الغرض يظهر من قصص الأنبياء فى سورة العنكبوت حيث يبين من خلال هذه القصص جهاد الأنبياء فى سبيل الدعوة إلى الله ومصرع أعدائه تحقيقا لنصر دين الله وإعلائه قال تعالى ﴿ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين﴾ إلى قوله تعالى ﴿فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾(٢)

٦- بيان عاقبة التقوى والصلاح وعاقبة الفجور والفساد ويظهر هذا الغرض واضحا من نهاية بنى آدم حينما قربا قربانا فتقبل من أحدهم و لم يتقبل من

------

(١)سورة هود آية ١٢.

(٢) سورة العنكبوت من ١٤إلى ٤٠.

الآخر فتوعد من لم يقبل قربانه أخاه فقتله فأصبح من النادمين الخاسرين وفاز القتيل برضوان الله حيث رضى بحكم الله وأسلم أمره إليه ولم يتعد حدود الله وخاف مقام ربه قال تعالى ﴿واتل عليهم نبأ ابنى آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر قال لاقتلنك قال إنما يتقبل الله من المتقين﴾ إلى قوله تعالى ﴿فأصبح من النادمين﴾(١)

فالإئتمار بأمر الله والإنتهاء بنهيه والوقوف عند حدوده وعدم انتهاكها فيه الخير كله ونهايته رضا الله ورضوانه والفوز بجنته ونعيم الآخرة وأما الإنتهاك لحدود الله واقتراف نواهيه وعدم التسليم لأمره والرضا به ففيه الهلاك والمقت والخذلان من الله تعالى والعاقل من اتعظ بغيره ورضى بقضاء الله وقدره ومن رحمة الله بالإنسان أنه قص عليه قصص السابقين وضرب له الأمثال ليتعظ وليعتبر بما جرى فينتفع بذلك فى ذات نفسه وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾(٢)

----

(١) سورة المائدة الآيات ٢٧ال٨١

(٢) آخر سورة يوسف آية١١١.

مايشبه التكرار فى القصة القرآنية ومظاهر الإعجاز البيانىفيه

ما يشبه التكرار فىالقصة القرآنية جاء لملابسات ومقتضيات ولحكم سامية وعظات بالغة ولتكمتل كل عناصر القصة وتتم كل أحداثها مع نهاية ترابط جملها وكلماتها وتعانق ألفاظها وانسجامها مع معانى كلماتها وبلوغها من الفصاحة والبلاغة مبلغا يكون به التحدى والإعجاز تندق دونه أعناق فحول الفصحاء والبلغاء ، لأن القصص القرآنى كلام الله المعجز فهو أحسن الحديث وأحسن القصص لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد وهذا الذى ذكرناه موجز عن شبه التكرار فى القصة القرآنية مجملا نفصله فيما يلى فى الكلام عن قصة آدم عليه السلام ومظاهر الإعجاز البيانى فيها :-

أولا: التكرار فى قصة آدم عليه السلام ومبلغه من الإعجاز.

دواعى تكرار القصة برمتها.

يتنزه كلام البارى سبحانه وتعالى عن التكرار بدون فائدة وعن الإعادة بدون مغزى والذى يرمى كلام الله تعالى وهو الحكيم فى كل شئ بالتكرار بدون فائدة فقد أساء ، إما عن جهل بأسلوب القرآن الكريم وطريقته فى العرض والقصد إلى الأهداف ، وإما عن عناد وكفر يحمله عليه الهوى والتعصب الذى يغلف قلب صاحبه بغلاف من الظلام يمنع عنه وصول الهداية والنور ، فالتكرار للقصة فى الحقيقة ليس بتكرار يعرف ذلك من دقق النظر فىالمناسبة التى تستدعى إيراد القصة ويدرك ذلك كم عرف أن القرآن معجزة رسول الله عليه وسلم إذ لابد من داعية تستدعى التكرار ونحن إذا أردنا أن نعرف سر التكرار

فى قصة آدم عليه السلام وغيرها من القصص المكرر وجدناه يمكن فى الأمور الآتية التى توجب أن يكون القرآن معجزا وفى نهاية القمة من البلاغة والبيان وهذه الأمورهى:-

١- التكرار يحمل بين طياته زيادة التحدى ويرفع علم الإعجاز وينعى على المشركين أعداء الدعوة عجزهم عن المعارضة.

ذلك لأن القصة قد إمتاز أسلوب عرضها بطريقة لم يسبق لها مثيل فلا يستطيع أن يسلكها سالك أو ينتهجها ناهج فأسلوبها فى ذلك العرض نسيج وحده وسواء فى ذلك عند أدائها بايجاز أو إسهاب أو بين ذلك.

وإن تعجب لذلك الأسلوب البيانى فى القصة وهى ذات هدف واحد فى الجملة ومعنى واحد مع تفرقها فى القرآن الكريم فى أماكن متعددة ومتباعدة فى أوقات نزولها فالعجب والحالة هذه من صعوده وتحليقه فوق سماء البلاغة مع ما يوجب له الوهن كما هى العادة عند تكرار كلام البشر، فأنت ترى سمو البلاغة فى القصة مع كل هذا إذ لا مفارقة ولا تلفيق و لاتشويه ولا ترقيع ولا تعسر ولا اضطراب ولا كبوة ولا عثار بل هى وحده واحدة مترابطة متناسقة تكون لك صورة واحدة فى أحسن تقويم ، وتعطيك منظرا متآلفا فى إبدع تنظيم فهى مترابطة الأجزاء متكاملة البناء وحيدة السبك قريبة المعنى لا تناكر بين معانيها فى العقل والإفهام ولا تباين بين مبانيها فى الأسماع والآذان بل يكمل بعضها بعضا ويأخذ بغضها يحجز بعض، كل جزء يستدعى الآخر معه وكل لفظ يقع من الثانى موقعه ، وبالجملة فالقصة مثل رائع من أمثلة البيان المعجز والسحر الحلال سهلة فى أسلوبها الذى يدركه الخاصة ولا يتأبى

على أفهام العامة لا شطط فيه ولا إسفاف ولا تعقيد بل رونق وبهاء وجزالة وعذوبة وجودة سبك ودقة عرض فمن ذا يستطيع من البشر محاكاتها أو يروم معارضتها ، ومن ذا يردد كلامه أو يكرر مقاماته ذات المعنى الواحد مع هذه المزايا والخصائص التى لازمت تكرار قصة آدم عليه السلام.

فقصة آدم عليه السلام والحالة هذه تحمل عنصر التحدى وترفع علم الإعجاز للقرآن الكريم وكأن الله سبحانه وتعالى يقول هذه قصة كتابى وجملة من جمل كلام ذات معنى واحد وموضوع واحد نزلت عليكم فى كل مرة بثوب قشيب من البلاغة والبيان.

فان كنتم فى ريب من الدعوة وصاحبها فأتوا بشيئا من كلامكم يماثلها ويحاكيها فى أى صورة من صورها وقد أفسحت لكم عنان المعارضة ما حجرت عليكم فى محاكاة صورة واحدة لا نستطيع معارضتها والإتيان بمثلها ولو كانت قد جاءت بصور متعددة لجاز لنا معارضة إحدى سورها والإتيان بمثل أحد نماذجها يقول الشيخ عبد الوهاب النجار : إن هذه القصة فى جميع الصور بمعنى واحد ولكن بعبارات مختلفة اللفظ فقط وذلك مما يدل على إعجاز القرآن فان أكتب الكتابين وأبلغ البلغاء إذا كتب قصة مرة يستحيل عليه أن يكتبها مرة أخرى بألفاظ غير الأولى مع المحافظة على المتانة فى الأسلوب والبلاغة فى التعبير كما فى القرآن (١).

-----

(١) قصص الانبياء عند الكلام على قصة آدم عليه السلام.

٢- التكرار وسيلة من وسائل التربية الحديثة وعلم النفس، يهدف إلى إصلاح النفس وتهذيب الأخلاق وذلك كله من الأمور المهمة أن تؤكد الهدف إلى إصلاح النفس وتهذيب الأخلاق وذلك كله من الأمور المهمة أن تؤكد بتكرار طلبها والحث عليها كما هى العادة فى تلاؤم الأمور ويستأنس لما نقول بقول الشاعر:

كرر وردد ذكرهم فى مسمعى فهم الشفا لتألمى وتوجعى

٣- القصة مع تكرارها سبع مرات فى سبع سُور لم تهن فى النفوس، ولم تمل فى الأسماع بل هى كما هى كل مرة تحمل عنصر التشويق، لا يمجها الذوق بحة ولا تكل منها الآذان مرة بل تزداد حلاوة وطلاوة وتكتسى جمالا ونضارة وتلك ميزة القرآن الكريم وفى ذلك من الإعجاز ما فيه حيث خالف تكرار القصة المألوف من تكرار كلام الناس، وإذن فالتكرر يحمل هدفا سامياً.

٤- العظات والعبر فى كل صورة من صور القصة، فى كل مرة عبرة تظهر من المناسبة التى يحتملها السياق وذلك لأن المقصود من القصة العبر والعظات التى تستلهم من وقائعها وأن تكون مرآة يرى فيها الداعى جهود من سبقوه من الدعاة وترى فيها الشعوب كافة سنن الله فى خلقة وآياته فى تدبير شئونهم ويرى فيها الناس عاقبة الظالمين.

فإن القصة الواحدة قد تساق فى مواضع متعددة فى مقام العظة والإعتبار يقتضى إيرادها ومن إستشهد بحكمة فى مقام يقتضى الإستشهاد بها ثم استشهد بها فى مقام آخر لا يقال أنه كرر ذكر الحكمة وإنما ذكرها فى مناسبتها.

ومن استقرأ قصص القرآن الكريم يتبين له أن القصة الواحدة مكونة من عدة وقائع وأن كل واقعة فيها عبرة ولها مغزى وأن المقصود من العبرة مجموعة العظات التى فى وقائعها فقد يقتضى سياق الآيات فى القرآن الكريم تذكير الرسول صلى الله عليه وسلم بما قاساه الرسل من قبله من تكذيب وإيذاء وسخرية واستهزاء فتذكر قصة أو قصص وتكون واقعة الإيذاء والاستهزاء موضع الإسهاب والإطناب.

وقد يقتضى ساق الآيات تذكير الأمم بما نال الجاحدين من قبلهم فتذكر القصة أو القصص مع الإسهاب والإطناب فيما حل بالجاحدين من الآيات. وقد يقتضى سياق الآيات أن الله يؤيد رسله بالمعجزات فتذكر القصة مع الإسهاب فى معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم فليس من الحكمة والحالة هذه الاعتراض بل المطلوب الدراسة والبحث لمعرفة الحكمة فلكل مقام مقام وبناء على هذا السياق الذى يقتضى ذكر القصة لأخذ العبرة منها ولتكون القصة شاهدا ودليلا على تقدير المقام الذى وردت فيه سنذكرأسباب ورود قصة آدم عليه السلام فى كل مرة وردت فيها وعند كل موطن سيقت بعده.

٥- وقبل ذكر الأسباب والدواعى التى تقتضى إيرادها أود أن أقول أن مما يدفع القول بالتكرار أيضا أن تكرار القصة يؤدى فى النهاية إلى إكتمال عناصر القصة وذكر كل ظروفها ومناسباتها وتصوير خواطر أشخاصها وأحاسيسهم وخلجات قلوبهم يقول الأستاذ عبد الكريم الخطيب تقريرا لهذا بعد شرحه وعرض شواهد عليه بقصة موسى عليه السلام.(وهكذا نجد التكرار الذى يحدث فى بعض مشاهد القصة القرآنية يؤدى وظيفة حيوية فى غزار جوانب لا

يمكن أداؤها على وجه واحد من وجوه التعبير بل لابد أن تعاد العبارة مرة ومرة لكي تحمل في كل مرة بعضا من مشخصات المشهد وإن كانت كل عبارة تعطى صورة مقاربة للمشهد كله(١) ثم يقول فى هذا المعنى أيضا تحت عنوان (دعوى وبرهانها) والدعوى التى ندعيها لداعية التكرار فى القصص القرآنى وفى كل تكرار فى القرآن تختلف فيه الصور للحدث الواحد هى أن هذه الصورة المتكررة يكمل بعضها بعض وأنها فى مجموعها تعطى صورة واحدة مجمعة أو شبه مجمعة للحدث الواحد ليس الا تجميعا لمتناثر الأقوال عن هذه الواقعة أو ذلك الحدث أو ليس الا التقاطا لظاهر القول ثم لما يكمن وراءه من خواطر وخلجات (٢) أو يدانيه بقول الخطيب فى القصص القرآنى عقب قوله السابق أولا ، (أن تكرار الأحداث القصصية فى القرآن هو إعجاز القرآن تنجلى فيه روعة الكلمة وجلالها بحيث لا يرى لها وجه فى آية لغة أو أية صورة من صور البيان يقارب هذا الوجه فى جلاله وروعته وسطوته)(٣) ويقول بعد أن يرد على الطاعنين فى بلاغة القرآن بالتكرار فى كتابه إعجاز القرآن : التكرار فى القرآن هو إعجاز من إعجازه ، لوجه جديد من وجوه البلاغة لم ينطق به قبل القرآن لسان فيجد فيه تلك الطلاوة والحلاوة على هذا الوجه الذى جاء به الكتاب الكريم(٤)

---

(١) القصص القرآنى للاستاذ عبد الكريم الخطيب ص٨٦.

(٢) القصص القرآنى ص ٢٤٣.

(٣) القصص القرآنى ص٦٨.

(٤) إعجاز القرآن للاستاذ عبد الكريم الخطبيب ص٣٧٣.

الأسباب والمناسبات التي سيقت من أجلها قصة آدم عليه السلام

أولا سبب ورود القصة في سورة البقرة:

جاءت قصة آدم عليه السلام فى سورة البقرة فى سياق تذكيز الناس بنعم ا لله عليهم والعجب من أنهم يكفرون به سبحانه وهو الذى غمرهم بفضلة وإنعامة من بدء خلقهم فبعد أن قال جل جلاله ﴿هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شئ عليم﴾(١) عقب قوله سبحانه ﴿كيف تكفرون با لله ﴾الآية . قال ﴿وإذ قال ربك للملائكة أنى جاعل فى الأرض خليفة﴾ إلى قوله ﴿فمن أتبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ففى هذه الآيات التى ذكر ا لله فيها قصة آدم عليه السلام ذكر الناس بنعم ا لله الجليلة عليهم فالنعمة على الأصل نعمة على الفرع ذكرهم بجعل آدم خليفة فى الأرض وفى اختيار الإنسان للخلافة دون الملائكة تكريم له وفضل عظيم عليه كما ذكرهم بما ميزه به على الملائكة من العلم بالأسماء التى تقع تحت حسه وذكرهم أنه سبحانه ما ترك آدم بعد ذلته وخطيئته -فى الظاهر - بل أنعم عليه (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ﴾ فسياق القصة من هذه السورة للتذكير بنعم ا لله على الإنسان وما ذكر من وقائعها هى الوقائع التى تتجلى فيها نعم ا لله على الإنسان ولهذا قال سبحانه بعد ختام القصة ﴿يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون﴾.

----

(١) البقرة آية ٤٠ "ذلته وخطيئته من قبيل حسنات الأبرار سيئات المقربين وما كان من منه فى ظاهره معصيته فهو مؤول لأنه معصوم صلى ا لله عليه وسلم"

ثانيا : سبب ورود القصة فى سورة الأعراف.

وردت القصة فى سورة الأعراف فى مساق أن الناس قليلا ما يشكرون الذى مكنهم فى الأرض وجعل لها فيها معايش فبعد أن قال سبحانه ﴿لقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون﴾ قال سبحانه ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ وفى هذه الآيات الستة عشر التى ذكر الله فيها قصة آدم عليه السلام أسهب فى موقف إبليس من الإنسان وحده وعدائه له بقوله ﴿ لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم ومن أيمانهم وعن شمائلهم ﴾وقد أرد المولى سبحانه تنبيه الناس إلى أنهم قليلا ما يشكرون لأنهم فتنوا بوسوسة إبليس الذى أقسم ليقعدن لهم ولو اتخذوه عدوا ونبذوا وساوسه لشكروا ربهم من أجل هذا كان الإطناب فى واقعة وسوسة الشيطان وحلفه على إغواء الإنسان لذا عقبها سبحانه بقوله ﴿يا بنى آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة﴾

ثالثا : سبب ورود القصة فى سورة الحجر.

أما فى سورة الحجر فان القصة وردت فى سياق أن الله كما خلق الانسان من خلق الجن من نار والطين والنار مادتان لكل واحدة منهما حكمها ولا فضل لمادة على أخرى منهما توجب للمخلوق منهما أن يتكبر على خالقة ويعصيه ويكفر به سبحانه بسبب أنه خلق من مادة هى فى نظرة القاصر أفضل من المادة التى خلق منها من فضله الله عليه كما فعل إبليس اللعين مع خالقة ومولاه الذى أمره بالسجود لآدم عليه السلام مخلوق من طين وإبليس مخلوق من نار والنار أقوى وأفضل من الطين وهذا من إبليس ، يدل على الجهل والغرور فبعد أن قال سبحانه ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حما

مسنون والجان خلقناه من قبل من نار السموم ﴾قال ﴿وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من صلصال من حمـا مسنون ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان الا من اتبعك من الغاوين وفى هذه الآيات الأربع عشرة كان الإطناب فى رجم إبليس وإستحقاق اللعنة إلى يوم الدين يبين سبحانه أن مادة الخلق لا تدفع عقاب ا لله وسخطه وأن الذى يدفعه إنما هو صالح الأعمال ولذلك قال سبحانه بعدها ﴿أن المتقين فى جنات وعيون أدخلوها بسلام أمنين ونزعنا ما فى صدروهم من غل إخوانا على صرر متقابلين﴾.

هذا واعلم أن قول إبليس(أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾وقوله ﴿لم أكن لأسجد لبشر خلقته من صلصال من حما مسنون ﴾ وما ذكرها الا على سبيل التعنت دلت على جهله وغباوته والا فامتناعه عن السجود لآدم عليه السلام إنما كان عن كبر وكفر ومجرد إباء وحسد ، وقد أنصف ابن الجوزى فى كتابه (أخبار الحمقى والمغفلين) حيث ذكر إبلييس أول الحمقى ممن كانوا عقلاء صدرت منهم أفعال الحمقي مصرين عليها نسأل ا لله السلامة من الخذلان فى الدينا والأخرة.

رابعا : سبب ورود القصة فى سورة الإسراء.

ورود القصة فى هذه السورة فى سياق فتنة الناس بحادث الإسراء حتى ارتد كثير منهم فبعد أن قال ا لله تعالى ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا﴾ إلى قوله ﴿ إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا﴾.

وفى هذه السورة ذكرت القصة فى ست آيات وكان الإسهاب فيها فى واقعة حسد إبليس لآدم عليه السلام وعدائه له ولذريته وأن ذلك العداء والتوعد بالإغواء كان أكبر فتنة عانى منها الإنسان وأعظم إبتلاء للجنس البشرى أوقع كثيرا فى المعاصى الإ من عصمه الله.

خامسا : سبب ورود القصة فى سورة الكهف.

وفى سورة الكهف وردت القصة فى آية واحدة وكان ورودها فى سياق أن كل إنسان يعطى كتاب أعماله يوم القيامة وأن المجرمين يخافون مما فيه من السيئات ويقولون يا ويلتنا مال هذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الإ أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحداً.

ولذلك ذكرت قصة أدم بعد هذا وكان الإسهاب فيها فىالتحذير - للناس - من طاعة إبليس وذريته الذين وقفوا أنفسهم على فتنتهم وإغوائهم.

سادسا : سبب ورود القصة فى سورة طه عليه الصلاة والسلام.

وردت القصة هنا فى عشر آيات من قوله تعالى ﴿ولقد عهدنا إلى آدم﴾ إلى قوله تعالى ﴿ولعذاب الآخرة أشد وابقى﴾ وسياق القصة ومغزاها فى هذه السورة فى ضعف عزيمة الإنسان وحاجته إلى معونة الله فى تكفير خطيئته وقد جاءت بعد قوله تعالى ﴿فتعالى الله الملك الحق ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل رب زدنى علما﴾ فأفاد ما قبلها نفى الرسول عن العجلة فى القراءة قبل أن يفرغ جبريل من الوحى حتى لا يكون عجولا مثل آدم عليه السلام حيث تعجل الأكل من الشجرة ناسيا.

سابعا : سبب ورود القصة فى سورة ص .

فى هذه السورة وردت القصة من أول قوله تعالى ﴿ إذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين ﴾إلى قوله ﴿قال فالحق والحق أقول لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين﴾وسياق القصة لإعادة أن من اتبع إبليس فهو بسببه فى جهنم وقد جاءت بعد قوله تعالى ﴿هذا وإن للطاغين لشر مآب جهنم يصلونها فبئس المهاد﴾.

هذه هى دواعى التكرار الذى يمليه موضع العظة من القصة فى كل مرة وردت فيها إذن فالتكرار مسبب عن السياق وبهذا يندفع ما يقال بشأن التكرار ممن يتلمسون المطاعن لديننا وكتابنا الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

بيان وجوه بطلان شبهة إبليس فى أفضلية النار على الطين.

ذكرت وجوه عند بيان سبب ورود قصة آدم عليه السلام فى سورة الحجر أن إبليس كفر با لله تعالى وامتناعه عن السجود إنما كان عن كبر وكفر وأن قوله ﴿أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ شبهة ذكرها على سبيل التعنت وهى شبهة داحضة وباطلة من وجوه كثيرة وسأذكر فى دحضها وبيان بطلانها ما ذكره الإمام السيوطى فى كتابه (الكنز المدفون والفلك المشحون) ببعض تصرف فأقول : إعلم أن هذه الشبهة التى ذكرها إبليس لعنه ا لله من قوله ﴿ أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ وإنما ذكرها على سبيل التعنت وامتناع السجود لآدم إنما كان من كبر وكفر ومجرد آباء وحسد ومع ذلك فما أبداه من الخيرية فهو داحض لأنه رتب على ذلك أنه خير من آدم

بكونه خلق من نار وآدم خلق من طين ورتب أنه لا يحسن منه الخضوع لمن هو دونه وهو خير منه وهذا باطل من وجوه:-

الأول : أن النار طبعها الإفساد والإتلاف بخلاف التراب.

الثانى : أن النار طبعها الخفة والطيش والحدة والتراب طبعه الرزانة والسكون والثبات.

الثالث : أن التراب التكون منه وفيه ارزاق الحيوان وأقواتهم ولباس العباد وزينتهم ولات معايشهم ومساكنهم والنار لا يكون فيها شئ من ذلك .

الرابع : أن التراب ضرورى للحيوان لا يستغنى عنه البتة ولا عما يتكون فيه ومنه ، والنار يستغنى عنها الحيوان البهيم مطلقا وقد يستغنى عنها الإنسان الأيام والشهور فلا تدعوه إليها ضرورة.

الخامس : أن التراب إذا وضع وفيه القوت أخرجة أضعاف أضعاف ما وضع فيه فمن بركته يؤدى ما استودع فيه إليك مضاعفا ولو استودعته النار لخانتك وأكلته و لم تبق و لم تذر.

السادس : أن النار لا تقوم بنفسها بل هى مفتقرة إلى محل تقوم به بكون التراب حاملا لها لايفتقر إلى الحامل فالتراب أكمل منها لغناه وفقرها.

السابع : أن النار مفتقرة إلى التراب وليس التراب مفقرا إليها لأن المحل الذى تقوم به النار لا يكون الا متكونا من التراب أو فيه فهى الفقيرة إلى التراب وهو الغنى عنها.

الثامن : أن المادة التى خلق منها إبليس هى مارج النار وهو ضعيف يتلاعب به الهواء ويميل معه حيث مال ولذلك غلب الهوى على إبليس المخلوق منه فأمرة

وقهره وخالف أمر ربه وكفر به ولما كانت المادة الآدمية التى خلق آدم عليه السلام هواه ورجع إلى ربه فتاب عليه واجتباه واصطفاه وكان الهوى مع المادة الآدمية عارضا سريع الزوال وكان إبليس على العكس إلى أصله الخبيث الردئ لعنه ا لله تعالى.

التاسع : أن النار وإن حصل بها بعض المنفعة والمتاع فان الشر كامن فيها لا يصدها عنه الا حبسها ولولا ذلك لأفسدت الحرث والنسل ، والتراب الخير والبركة كامن فيه كلما اثير وقلب ظهرت بركته وخيره وثمرته فأين أحدهما من الاخر؟

العاشر : أن ا لله تعالى أكثر ذكر مادة خلق آدم عليه السلام فى كتابه الكريم وهى الأرض وأخبر عن منافعها وخلقها وأنه جعلها مهادا وفراشا وقرارا وكفاتا للأحياء والأموات ودعا إلى التفكر فيها والنظر فى آياته وما أودع فيها مما لا ينحصر عدا ، ولم يذكر النار الا فى معرض العقوبة والتخويف والعذاب لا فى موضعين ذكرها فيهما بأنها تذكرة ومتاع المقوين أى تذكر بنار الآخرة ومتاع لبعض افراد الناس وهم المقوون أى النازلون بالقواء وهى الأرض الخالية إذا نزلها المسافر تمتع بالنار فى منزله فأين هذا من أوصاف الأرض فى القرآن.

الحادى عشر : أن ا لله تعالى وصف الأرض بالبركة فى غير موضع من كتابه خصوصا وأخبر بأنه بارك فيها وقدر فيها أقواتها فهذه بركة عامة وأما البركة الخاصة ببعضها فقوله تعالى ﴿ونجيناه ولوطا إلى الأرض التى باركنا فيها﴾

وأمثال هذه الآية كثيرة فى القرآن وأما النار فلم يخبر أنه جعل فيها بركة أصلا بل المشهور عنها أنها مذهبة للبركة ممحقة لها فأين المبارك فى نفسه المبارك فيما وضع فيه من مزيل البركة وما حقها؟

الثانى عشر : أن الله تعالى جعل الأرض محل بيوته التى يذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال عموما وبيته الحرام خصوصا الذى جعله قياما للناس مباركا وهدى للعالمين فلو لم يكن فى الأرض إلا بيته الحرام لكفاها ذلك شرفا وفخرا على النار.

الثالث عشر : أن الله تعالى أودع الأرض من المعادن والأنهار والعيون والثمرات والحيوانات والأقوات والجبال والرياض والمراكب الباهية والصور البهيجة ما لم يودع فى النار شيئا منها فأى روضة وجدت فى النار أو جنة أو معدن أو صورة أو عين جرارة أو نهر مطرد أو ثمرة لذيذة .

الرابع عشر : أن غاية النار أنها وضعت خادمة لمن فى الأرض فالنار أذن محلها محل الخادم لهذه الأشياء فهى خادمة فقط إذا استغنيت عنها أبعدتها وطردتها وإذا احتاجت إليها استدعتها كما يفعل المخدوم مع خادمه.

الخامس عشر : أن اللعين لقصور نظره وضعف بصيرته رأى أن صورة الطين تراب ممتزج بماء فاحتقره ولم يعلم أن الطين مركب من أصلين الماء الذى جعل الله تعالى كل شئ منه حيا والتراب الذى جعله الله خزانة المنافع والنعم ، وهذا وكم يجئ من الطين من المنافع والأمتعة فلو تجاوز نظره إلى بدايته ونهايته لرأى أنه خير من النار وأفضل ثم لو سلم بطريق الفرض الباطل أن النار خير من الطين لم يلزم من ذلك أن يكون المخلوق منها خيرا من المخلوق من الطين فان

القادر على كل شئ يخلق من المادة المفضولة من هو خير ممن خلقهمن المادة الفاضلة بإعتبار تكامل النهاية لا ينقص المادة فاللعين لم يتجاوز نظره محل المادة ولم يعبر منها إلى كمال الصورة.ونهاية الخليقة . انتهى ما ذكره السيوطى من أوجه ادحاض وبطلان شبهة إبليس فى أن النار أفضل من الطين وأنه بالقياس على هذا أفضل من آدم عليه السلام.

تكرار بعض الجمل والألفاظ فى القصة:

وأما تكرار بعض الجمل والألفاظ فى قصة آدم عليه السلام فإنه أيضا فى الحقيقة ليس تكرارا لأن له أسبابا ودواعى تقتضيه وإليك الدواعى لتكرار بعض جمل القصة

أولا : - التكرار الخاص بالكلام عن مادة الخلق لآدم عليه السلام فى قوله تعالى﴿ إذ قال ربك للملائكة أنى خالق بشرا من طين ﴾ ص

وفى قوله تعالى ﴿فاستفتهم أهم أشد خلقا أمن خلقنا إنا خلقناهم من طين لازب﴾ الصافات.

جئ به لبيان الأطوار التى مرت بطينة آدم عليه السلام لأن معنى الآيات كما ذكره وبينه علماء التفسير أن الله تعالى كون هيكل آدم عليه السلام أولا من طين وهذا الطين صالح لبناء الهيكل لأنه لازب متماسك ثم مضت مدة على هذا الطين اللازب حتى أصبح حما مسنونا منتنا ثم جاء وقت على هذا الحمأ المسنون حتى صار يابسا صلصالا فتكرار هذه الصيغ التى تعبر عن مادة الخلق للإفادة بتلك الأطوار التى لم تكن لتعرف لو ذكرت إحدى هذه الصيغ فقط

ولا لتقع موقعها من القبول لو ذكرت كلها فى قصة البقرة أو فى الأعراف فقط أو فى كل صور القصة متراصة متتابعة.

ثانيا : - التكرار الخاص بالتنويه والإشادة بشأن آدم عليه السلام وأمر الملائكة بالسجود له ورد مكررا بالصيغ الاتية:

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ﴾ بالبقرة.

﴿ ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا﴾ الأعراف.

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حمإ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾الحجر.

﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ﴾ الإسراء.

وفى الكهف وطه على نحو ما فى الإسراء وفى (ص) على نحو ما فى الحجر.

وبعرض الوارد فى هذا الموضع من القصة يعلم أنه تكرر خمس مرات على صورة واحد فى البقرة والأعراف والإسراء والكهف وطه.

وأنه تكرر مرتين على صورة واحدة فى الحجر و(ص).

ويستفاد من هذا أن التكرار للتنويه بعظمة آدم عليه السلام ذلك الخليفة عن الله فى إمضاء أحكامه وتنفيذ أوامره والذى أفاض عليه من علمه ما يستحق به السيادة لهذا الكون وأيضا فانه ترتب على كل أمر ما لم يترتب على الآخر فالأمر فى قصة البقرة ترتب عليه كفر إبليس وإبائه وإستكباره والأمر فى قصة الأعراف ترتب عليه إخبار الله عن إبليس أنه لم يكن من الساجدين.

والأمر فى سورة الحجر ترتب عليه إباء إبليس عن السجود.

والأمر فى سورة الإسراء ترتب عليه إستنكار إبليس الأمر بالسجود لآدم المخلوق من الطين.

والأمر في سورة الكهف ترتب عليه خبث معدن إبليس المشعر بعلية الامتناع عن السجود بعد أمر الله له بذلك.

والأمر في سورة طه ترتب عليه إباء إبليس الا أن هناك مفارقة بين هذا الإباء والإباء فى سورة الحجر لأن الإباء فى سورة الحجر لم يترتب وحده على الأمر وإنما ترتب هو مع خروج إبليس عن الجماعة وهي معصية مستقلة ، أما هنا فقد ترتب الإباء مع نصيحة الله لآدم وتحذيره من إبليس على ذلك الأمر بالسجود والأمر فى سورة (ص) ترتب عليه ما ترتب عليه فى سورة البقرة وأفاد هنا علة الإستكبار والكفر والإباء حيث قال إبليس مجيبا على سبب الإمتناع من السجود ﴿ أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين ﴾ ولم يذكر الإباء هنا صراحة لأنه ذكر ضمنا لقوله تعالى ﴿ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى﴾.

ثالثا : التكرار الوارد فى شأن طلب إبليس الإنظار جاء على الصورة الآتية : ﴿قال أنظرنى إلى يوم يبعثون ﴾ بسورة الأعراف ، وكذلك فى الحجر و(ص) مع زيادة الفاء ولفظ رب ﴿ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته الا قليلا بسورة الإسراء وتدل الصيغة فى الإسراء على أنه يتوعد بالإغواء أن ترك وسلط عليهم فلما قال به ﴿أذهب فمن تبعك منهم ﴾ الآية ازداد طمعا فى تحقيق رجائه فقال ﴿انظرنى إلى يوم يبعثون ﴾ فلما أنظره الله انظارا مطلقا غير مقيد بالبعث بقوله تعالى فى سورة الأعراف إنك من المنظرين الخ أقبل على الله

تعالى وتضرع أكثر لينظره إلى يوم البعث حتى لا يذوق الموت فقال ﴿رب فأنظرني﴾ حيث دعا الله بندائه بلفظ رب الذى يدل منه على التضرع إلى الله لإجابته هذا الرجاء مع ما فى ذكر لفظ الرب من معانى العظمة والقوة ولما كان حريصا على تأخيره إلى يوم البعث قطع الله رجائه بقوله ﴿إنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾ وكرر الطلب بالإنظار إلى يوم البعث فكرر الله قطع رجائه فى ذلك وأخبره بأنه من المنظرين إلى يوم الذى أراد الله موته فيه وهو يوم الصعق عند النفخة الأولى كما فى حاشية الصاوى على الجلالين.

رابعا : التكرار للوسوسة : ذكرت الوسوسة بسورة الأعراف بقوله تعالى ﴿فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ورى عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة الإ أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين﴾

ثم ذكرت فى سورة طه فى قوله تعالى ﴿ فوسوس إليه الشيطان قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى﴾

وأفاد التكرار أن الوسوسة كانت لحواء كما كانت لآدم عليه السلام كما هو الحال فى سورة الأعراف ويدل أيضا على أن حرص إبليس على إغواء آدم كان أكثر من حرصه على أعواء حواء ويدل أيضا على أن إغواء المرأة سهل من إغواء الرجل لأن آدم توجهت إليه الوسوسة وقصده إبليس بها قصدا فكررت كما أفادت الآيتان.خامسا: تكرار النهى عن قربان الشجرة : جاء هذا النهى مكررا فى سورة البقرة وسورة الأعراف بصيغة واحدة هى قوله تعالى﴿ ولا

تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ﴾لأنه ترتب على كل منهما ما لم يترتب على الآخر فالنهى فى سورة البقرة رتب الله عليه قوله ﴿فوسوس لهما الشيطان ﴾ مع ما فى التكرار من تأكيد النهى بأبلغ الكلام.

سادسا : ومن المكرر الأمر بالهبوط والتحذير لآدم عليه السلام وذريته من إبليس وكيده فقد ذكر الأمر بالهبوط فى سورة البقرة فى قوله تعالى﴿وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ كما ذكر فى سورة البقرة أيضا فى قوله تعالى﴿قلنا اهبطوا منها جميعا فإما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ وقد ذكر الأمر بالهبوط أيضا فى سورة الأعراف إذ قال سبحانه ﴿ قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ كما ذكر فى سورة طه ﴿قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو﴾ ويلاحظ أن لفظ اهبطوا جاء بصيغة واحدة فى البقرة والأعراف وقد جاء فى صيغة الجمع لأن الأمر لآدم وحواء -عليهما السلام -وإبليس والتكرار فى السورتين للتوكيد والأعلام بأنه لا مطمع لأحد فى البقاء بالجنة وكرر فى سورة البقرة لأنه سبحانه رتب على الأمر الأول ما لم يرتب على الأمر الثانى إتيان الهدى فاتباعه أو مخلفته واجتنابه والخطاب فى ﴿ولك فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين ﴾ مراعى فيه ذرية كل من آدم وإبليس أما الأمر بسورة طه عليه السلام فانه لآدم وإبليس حيث جاء بصيغة التثنية وحواء داخلة فى الأمر لأنها تبع لادم عليه السلام .

وقد قيل عن الأمرين فى سورة البقرة أن الأول من الجنة إلى السماء والثانى من السماء إلى الأرض وبهذا يتبين أنه لا تكرار حيث كان الأمر بالتوكيد أو ليترتب

على أحدهما ما لم يترتب على الآخر أو لأن معنى الأمر الأول غير معنى الأمر الثانى إذ الثانى أمر بالهبوط من السماء إلى الأرض والأول أمر به من الجنة إلى السماء.

ومما تقدم من صور التكرار وبيان أسبابه ودواعيه يتضح لنا أنه مناط إعجاز القرآن الكريم يقول فضيلة الدكتور عبد الغنى الراجحى (والذى يتكرر سواء أكان فى كل المواضع يتكرر أم فى بعضها يتكرر فانه لم يكن تكرره على وتيرة واحدة ولكنه كان بأفانين من الأساليب والعبارات وهو بإعتبار البحث فى إقتضاء الحال لذكره ومطابقته لمقتضى الحال وتآخذه بسابقه ولاحقة فيما جاء عليه من الوجه والعبارة هو مناط إعجاز القرآن الكريم.)

ثانيا : بعض مظاهر الإعجاز البيانى فى التعبير بالقصة

١- من مظاهر الإعجاز البيانى فى قوله تعالى فى سورة البقرة ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا﴾ وقوله تعالى فى سورة الأعراف ﴿اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا﴾ فقوله تعالى فى سورة البقرة بالواو ، وبالفاء فى الأعراف لأن اسكن فى سورة الأعراف بمنزلة الشرط وهو معطوف عليه فيكون المعطوف وهو كلا بمنزلة فالأكل مترتب على الدخول فى الجنة واتخادها مسكنا أما فى البقر فأن الأمر بالسكنى ليس على حقيقته لأنه كان داخل الجنة والمراد : دم على السكنى فليس مترتبا على السكنى؛ لأن الأمر بالسكنى ليس بمنزلة الشرط فكان المناسب عطف كلا بالواو والمراد إجمع بين السكنى والأكل ونظير ذلك قوله تعالى ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا﴾ وقوله تعالى ﴿ إذ قيل لكم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم ﴾حيث

عطف الأول بالفاء لأن الآكل مترتب على الدخول والدخول بمنزلة الشرط فكأنه قال إن دخلتموها اكلتم بخلاف الثانى لأن الآكل ليس مترتبا على السكنى التى هى المُقام وطول المكث لأن من يدخل بستانا يجوز أن يأكل منه وإن كان مجتازا كما يقول الفخر الرازى فى مفاتيح الغيب (١) وقد ذكر فى حاشية الصاوى على الجلالين مثل هذا الكلام عن شيخ الإسلام ولكن الشيخ الصاوى عقب على جواب شيخ الإسلام(٢) عن سر التعبير بالواو وبالفاء فقال (والحق أن يقال إن ذلك ظاهر إن دل دليل على اختلاف القصة ولم يوجد ، فالقصة واحدة فى الأمر الموضوعين يحتمل أن يكون داخل الجنة أو خارجها فعلى الأول معنى اسكن دم على السكنى والفاء فى آية الأعراف بمعنى الواو وعلى الثانى معناه ادخل على سبيل السكنى فتكون الواو بمعنى الفاء (٣) وقول الشيخ الصاوى هذا هو ما يقيده كلام صاحب البرهان فى متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان(٤)

٢٠- ومن صور الإعجازالبيانى أن ا لله سبحانه زاد فى آية البقرة وهذه (رغدا) دون آية الأعراف لأنه سبحانه زاد فى البقرة الخبر تعظيما حيث قال (وقلنا) دون آية الأعراف إذ قال سبحانه (وإذ قيل لهم) فكان المناسب زيادة رغدا لأن العطاء العظيم يكون عظيماً.

---

(١)مفاتيح الغيب ج١ص٣٠٠

(٢) اى الفخر الرازى وهوشيخ الإسلام عند المفسرين.

(٣) انظر حاشية الصاوى عند تفسير الايتين.

(٤) البرهان فى متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان للكرمانى ص ٢٥.

٣- ومن ذلك اختلاف التعبير فى الجمل الثلاث الأتية :
وهى قوله تعالى ﴿ما منعك الأ تسجد إذ أمرتك﴾ وقوله ﴿ ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى استكبرت أم كنت من العالين ﴾ وقوله تعالى ﴿ قال يا إبليس مالك الا تكون مع الساجدين﴾ والاستفهام فى الجمل الثلاث للتوبيخ ويدل اختلاف التعبيرعند الحكاية للقول هنا على أن إبليس قد أتى بثلاث مخالفات وهى مخالفة لأمر الله تعالى والاستكبار ومفارقة الجماعة (ولا) فى الآية الأولى زائدة لتأكيد معنى النفى ما منعك وإنما كانت زائدة لأنها لم تكن فى الآية النافية آية (ص) التى جاءت على الأصل والقرآن يفسر بعضه بعضا وزيادتها لتوكيد النفى من قوله (منعك) ومن ذلك التعبير بلفظ لأقعدن دون لأجلسن لأن القعود يدل على التربص والترصد المستمر ومنه: قعيدة الدار. وقعد له بالمرصاد ثم زاد هذا المعنى بتوكيده بالنون الثقيلة للمبالغة فى التربص والملازمة للإغواء والإضلال.
٥- ومن ذلك التعبير بلفظ إلى دون امتنع للدلالة على أنه امتنع عن عناد وإصرار واختيار وهذا لا يؤدية لفظ عصى أو إمتنع إذ قد يكون الإمتناع أو العصيان عن جهل أو سهو أى بدون قصد المعصية والمخالفة.
٦- ومن ذلك التعبير بلفظ (لآحتنكن) دون غيره مما يؤدى معناه وذلك لأن عليهم داخل حنكة فلا ينجون منه لأنه سيضرهم بأسنانه.
٧- ومن ذلك التعبير بلفظ (فتشقى) فى قوله تعالى ﴿ فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى ﴾ دون فتشقيا ليدل على أن الشقاء خاص بالرجل لحصول القوت

وتوفير الراحة للزوجة وكما يقول الزمخشرى فى الكشـاف : العمـل معصـوب برأس الرجل.

٨- ومن ذلك ذكر حرف النداء فى قال (يا إبليـس) بسـورتى الحجـر و(ص) دون الأعراف لأن خطابه لم يقرب مـن ذكـره فـى الحجـر و(ص) كقربـه فـى الأعراف ولما قرب خطابه فى الأعراف من ذكره وهو ﴿الا إبليس لم يكن مـن الساجدين ﴾حسن حرف النداء والمنادى بعده فى قوله تعالى ﴿قال ما منعك﴾ خطابا لإبليس (١)

٩- ومن ذلك ذكر المنادى فى قوله (رب فـأنظرنى) بسـورتى الحجـر و(ص) مع ذكر الفاء بعد لفظ رب لأنه سبحانه لما اقتصر فى السؤال على الخطاب دون صريح الاسم فى الأعراف اقتصـر أيضـا فـى الجـواب علـى الخطـاب دون ذكـر المنادى ولما ذكر إبليس فى السؤال فى قوله سبحانه (قال يا إبليـس) فى الحجـر و(ص).

---

(١) البرهان فى متشابه القرآن للكرمانى ص ٦٨٣.

القصص القرآنى الذى لم يتكرر ذكره كثيراً

فى القرآن الكريم مجموعة من القصص لم يتكرر ، ذكرها منها على سبيل المثال:

١- قصة هابيل وقابيل.

٢- قصة رفع إدريس عليه السلام مكاناً عليا.

٣- محاجة سيدنا إبراهيم للنمرود ومشاهدة إبراهيم عليه السلام لإحياء الموتى فى قصة الطير التى ورد ذكرها مرة واحدة فى سورة البقرة.

٤- قصة أصحاب الكهف.

٥- قصة ذى القرنين.

٦- قصة موسى عليه السلام مع سيدنا الخضر عليه السلام.

٧- قصة ذبح البقرة.

٨- قصة طالوت وجالوت.

٩- قصة بلقيس مكلة سبأ.

١٠- قصة أصحاب الجنة الذين أرادوا حرمان الفقراء والمساكين من عطاياهم وصدقات أموالهم فرجعوا محرومين والجنة خاوية على عروشها.

١١- قصة أصحاب الرسل الثلاثة الذين بعثهم سيدنا عيسى عليه السلام لدعوة الخلق إلى الحق واعتدى عليهم الكفار وقتلوهم.

١٢- قصة أصحاب الفيل لم تذكر إلا مرة واحدة وهى فى منتهى القوة.

١٣- قصة النملة مع سليمان عليه السلام.

١٤- قصة الهدهد مع سليمان عليه السلام.

١٥- قصة العذراء مريم عليها السلام عندما جاءها المخاض وتمنت الموت لشدة الموقف الذى تعرضت له.

١٦- قصة سيدنا يوسف عليه السلام.

١٧- قصة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وزواجه من السيدة زينب بنت جحش.

١٨- قصة حادثة الإفك لم تذكر إلا مرة واحدة فى سورة النور.

إلى غير ذلك من القصص الذى لم يتكرر ذكره فى القرآن كثيراً لحكم يعلمها علام الغيوب سبحانه وتعالى وأسرار علم بعضها العلماء الأوفياء لدينهم وخفى عليهم الكثير منها وسبحان من إختص بعلم الغيب وحده ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً (٢٦)إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا (٢٧) ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شئ عددا﴾(١)

الحكمة فى عدم تكرار قصة يوسف عليه السلام

الحق تبارك وتعالى ذكر قصة يوسف عليه السلام فى سورة واحدة سميت باسمه ولم تتكرر هذه القصة فى القرآن لحكم سامية وأسرار عظيمة منها:

أولا : لما فيه من تشبيب النسوة به ، و تضمن الأخبار عن حال إمرأة و نسوه أفتتن بأبدع الناس جمالآ و أرفعهم منالا فناسب عدم تكرارها قد يكون بسبب

----

(١)سورة الجن

ما فيه من الإغضاء والستر عن ذلك وقد صحح الحاكم فى مستدركه حديثاً مرفوعاً النهى عن تعلم النساء سورة يوسف.

ثانيا : إن القصة اختصت بحصول الفرج بعد الشدة بخلاف غيرها من القصص فإن مآلها إلى الهلاك كقصة إبليس وقوم نوح ، وقوم هود وغيرهم فلما اختصت قصة يوسف عليه السلام بحصول الفرج بعد الشدة واليسر بعد العسر اتفقت الدواعى على عدم تكرارها.

ثالثاً : أن سورة يوسف نزلت بسبب طلب الصحابة أن يقص عليهم كما رواه الحاكم فى مستدركه فنزلت مبسوطة تامة ليحصل مقصود القصص من استيعاب القصة وترويح النفس بها والإحاطة بطرفيها.

رابعاً : إن قصص الأنبياء إنما كرر لأن المقصود بها إفادة إهلاك من كذبوا رسولهم ، والحاجة داعية إلى ذلك لتكرير تكذيب الكفار لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكلما كذبوا أنزلت قصة منذرة بحلول العذاب كما حل على المكذبين ولذا قال تعالى ﴿ فقد مضت سنت الأولين ﴾ الأنفال ٣٨.

وقوله ﴿ ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قرن ﴾ الأنعام ٦.

وقصة يوسف لم يقصد منها ذلك .

خامساً : ذكر المفسروين والمحققون أن القرآن الكريم إنما كرر قصص الأنبياء وساق قصة يوسف عليه السلام مساقا واحدا إشارة إلى عجز العرب عن الإيتان بمثل القرآن كأن النبى صلى الله عليه وسلم قال لهم إن كان القرآن من

تلقاء نفسي فافعلوا في قصة يوسف ما فعلت في قصص الأنبياء(١).

والحق أن الله أنزل في شأن سيدنا يوسف سورة من القرآن العظيم لتدبر ما بها من الحكم والمواعظ والآداب والأمر الحكيم ولكن الناس ذكروا أقوالا لا تليق بهذا النبي الكريم فرأيت من الواجب أن أقدم دراسة موجزة لقصة سيدنا يوسف عليه السلام كما فهمتها من آيات القرآن وأحاديث النبي محمد عليه الصلاة والسلام مستأنسا بأقوال العلماء الراسخين لا تليق بمقام نبي كريم ونسبوا إليه مالا يجوز نسبته.

إن كل ما ذكره الإخباريون من روايات بشعة إنما هو من وضع الزنادقة المغرضين وهدفهم هو التلبيس على المسلمين في دينهم وليشوهوا تفسير كلام الله ولا تغتر بإسناد تلك الروايات المدسوسة إلى بعض الصحابة و التابعين فهي روايات زائفة باطلة وموضوعة على أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم لأن نصوص الدين تردها وهي في الحقيقة روايات يكذب بعضها بعض ،فالواجب على كل مسلم أن يقف على نصوص آيات القرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ففي القرآن والسنة النور والهداية وفي غيرهما الضلال والغواية نسأل الله أن يهدينا طريقه المستقيم.

----

(١) بتصرف من كتاب إعجاز القرآن للدكتور أحمد العمري ١٦١/١ مكتبة الشباب بالمنيرة - القاهرة.

قصة يوسف عليه السلام

الحق تبارك وتعالى أنزل في شأن هذا النبى الكريم سورة كاملة من القرآن العظيم وقد صدر هذه السورة بمقدمتين:

أولاهما : فى وصف القرآن وكونه تنزيلا من عند الله دالا على رسالة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام.

ثانيهما: رؤيا يوسف عليه السلام فقال تعالى : ﴿بسم الله الرحمن الرحمن(١) الرحيم(٢) تلك آيات الكتاب المبين(٣) إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون (٤) نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين(٥)﴾

فأنت ترى أيها القارئ الكريم أنه تعالى مدح كتابه العظيم الذى أنزله على عبده ورسوله محمد الأمين بلسان عربى مبين واضح يفهمه كل عاقل منصف فالقرآن أشرف كتاب نزل من السماء . أنزله أشرف الملائكة بأمر من الله على أشرف الخلق فى أشرف زمان ومكان ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر (١) وما أدراك ما ليلة القدر (٢) ليلة القدر خير من ألف شهر (٣) تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر (٤) سلام هى حتى مطلع الفجر(٥)﴾.

وقد أنزل الله القرآن بأفصح لغة وأوضح بيان فإن كان السياق فى الأخبار الماضية أو الآتية ذكر أحسنها وأبينها وأظهر الحق مما اختلف الناس فيه ودمغ الباطل بالحجة البالغة ، وإن كان فى الأوامر والنواهى فالقرآن أعدل الشرائع وأتم المناهج وأعدل حكما فهو كما قال الله ﴿ وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا﴾ أى صدقا فى الأخبار ، وعدلا فى الأوامر والأحكام ولهذا قال

سبحانه ، ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين﴾ أى بالنسبة إلى ما أوحى إليك فيه(١).

كما قال تعالى: ﴿وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً تهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم (٥٢) صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور (٥٣)﴾(٢)

وقال تعالى فى سورة طه : ﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد آتيناك من لدنا ذكرا (٩٩) من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزرا (١٠٠) خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملا (١٠١)﴾.

قال العلامة ابن كثير: يعنى من أعرض عن هذا القرآن واتبع غيره من الكتب فإنه يناله هذا الوعيد كما قال فى الحديث المروى فى المسند والترمذى عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مرفوعا وموقوفا ﴿من ابتغى الهدى فى غيره أضله الله﴾ وقال الإمام أحمد فى مسنده حدثنا جريج بن النعمان حدثنا هشام أنبأنا خالد عن الشعبى عن جابر أن عمر بن الخطاب أتى النبى صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه على النبى صلى الله عليه وسلم قال فغضب وقال أنتهوكون فيها يا ابن الخطاب والذى نفسى بيده لقد

----

(١) انظر قصص الأنبياء لابن كثير ١/٣٠٦ -٣٠٧ بتحقيق الأستاذ مصطفى عبد الواحد دار التأليف بالقاهرة.

(٢) آخر سورة الشورى.

جئتكم بها بيضاء نقية ، لا تسألوهم عن شئ فيخبروكم بحق فتكذبونه أو بباطل فتصدقونه، والذى نفسى بيده لو أن موسى كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعنى ، إسناده صحيح.

بداية القصة كما ذكرها القرآن

قال تعالى : ﴿ إذا قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين (١) قال يابنى لا تقص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدا إن الشيطان للإنسان عدو مبين (٥) وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبوبك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم (٦)﴾

قال المفسرون وغيرهم : رأى يوسف عليه السلام وهو صغير قبل أن يحتلم ، كأن أحد عشر كوكباً ، وهم إشارة إلى بقية أخوته ، وَالشمس والقمر وهما عبارة عن أبويه قد سجدوا له فهاله ذلك ، فلما استيقظ من نومه قصها على أبيه فعرف أبوه أنه سينال منزلة عالية ورفعة عظيمة فى الدنيا والآخرة بحيث يخضع له أبواه وإخوته فيها فأمره بكتمانها وأن لا يقصها على أخوته كيلا يحسدوه.

وكان يعقوب عليه السلام شديد الحب ليوسف وأخيه فحسده أخوته لهذا السبب فلما ذكر يوسف عليه السلام هذه الرؤيا لأبيه وكان تأويلها أن أخوته وأبويه يخضعون له فحذره أبوه أن يخبرهم بها حتى لا يكيدوا له كيداً ويغيرون

منه فالغَيرة تحرق القلب وتعمى عن الأخوة وتفتح أبواب الشيطان ﴿إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾ وقد قصد نبى الله يعقوب بهذه النصيحة التى وجهها ليوسف عليه السلام تعبيراً لتلك الرؤيا ثم بشره بقوله : ﴿ وكذلك يجتبيك ربك﴾ أى وكما إجتباك بهذه الرؤيا العظيمة الشأن الدالة على العز والشرف فكذلك يجتبيك ربك لأمور عظام ويستخلصك للنبوة والدرجات العلى والمراتب العظيمة.

﴿ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴾ : والمعنى سيختارك الله نبياً يايوسف تهدى قومك وتأخذ بيدهم إلى طريق الله وسيتم الله نعمته عليك ويعلمك تفسير الأحلام. ﴿ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب﴾ : وهذا يقتضى إتمام النعمة بسعادات الدنيا والآخرة.

(كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق إن ربك عليم حكيم ، ومعلوم أن النعمة التامة التى بها حصل امتياز إبراهيم وإسحاق عن سائر البشر ليس إلا النبوة فوجب أن يكون المراد بتمام النعمة هو النبوة)(١)

---

(١) راجع تفسير الفخر الرازى ١٨/٩٣ط دار الفكر بيروت.

الآيات والحكم فى قصة يوسف

قال تعالى : ﴿لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين (٧) إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين(٨) اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوماً صالحين (٩) قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين(١٠)﴾

فالآيات فى إخبار سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعما وقع بخصوصها من غير تعلم ولا مطالعة كتب ولا قراءة أخبار ولا تواريخ عنها ففى هذه القصة آيات كثيرة لمن سأل عنها ولمن لم يسأل عنها فإنها من عجائب القصص.

وقوله : ﴿ إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ﴾: فالسبب الذى من أجله قصدوا إيذاء يوسف أن يعقوب عليه السلام كان يفضل يوسف وآخاه على سائر أولاده فى الحب وأنهم تأذوا منه لأنهم كانوا أكبر سنا من يوسف وأخيه فاجتمعوا فى ندوة بعيدة عن أبيهم وقرروا الخلاص من يوسف إما بقتله أو بنفيه فى مكان سحيق بعيد عن العمران فتأكله السباع والوحوش ليخلو لهم وجه أبيهم وظنوا أنه بمضى الزمان سينسى أبوهم يوسف ثم يعود إلى حبهم ورعايتهم.

وقد رموا والدهم بالضلال المبين والمراد بهذا الضلال هو عدم رعاية مصالحهم فى الدنيا وليس المراد به الضلال الذى يقصد به البعد عن الحق والرشد والصواب وفى غمرة التفكير فى الخلاص من يوسف نطق واحد منهم لم يحدده

القرآن لآن القرآن يهتم بالمواقف النبيلة ولا يهتم بذكر الأسماء لذلك قال الله تبارك وتعالى مقولة هذا الرجل : ﴿ قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه على غيابت الجب يلتقطه بعض السيارة إن كنتم فاعلين ﴾. ففى قوله ﴿إن كنتم فاعلين﴾ إشارة إلى أن الأولى أن لا تفعلوا شيئاً من ذلك ، وإما إن كان ولابد فاقتصروا على هذا القدر ونظيره قوله تعالى فى سورة النحل :﴿وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ يعين الأولى أن لا تفعلوا ذلك ما ذكره الفخر الرازى فى تفسيره.

ونلاحظ أنه نهاهم عن القتل لأن فى القتل وحشية وجلب للعار ، وعقوق للأبوة وإهدار لكرامة الأخوة إن كان ولابد أنكم مصرون على إبعاد يوسف عن أبيه فلا تسجلوا على أنفسكم جريمة القتل واقذفوا به إلى أقصى الأرض ، أو ألقوه فى الجب فإن مات كان موته بعيداً عن أعيننا وندعى أنه سقط وغرق فيها وإن عاش وأخذه أحد فسيذهب به إلى مكان بعيد لارجعة منه.

وأعجب هذا الرأى الآخوة المؤتمرين وراق فى أعينهم فأقروه وزاد واحد منهم فقال نخلع عنه قميصه ونلطخه بالدم وندعى أن ذئباً أكله فلم يبقى منه شيئاً إلا قميصه (١).

وتمت المؤامرة . واستقر الرأى وبدءوا ينفدون ولقد انتهى دور التفكير وجاء دور التنفيذ. وذهبوا إلى أبيهم يتلطفون ويتصنعون التودد والحنان على يوسف ودار الحوار

----

(١) بتصرف من كتاب قصص من القرآن ٧٠/١ تأليف الأستاذ محمود زهران ط دار غريب للطباعة بالقاهرة.

بين يعقوب عليه السلام وبين أبنائه الذين أضمروا الشر ليوسف عليه السلام:
﴿ قالوا يا أبانا مالك لا تأمنا على يوسف وإنا له لناصحون أرسله معنا غداً يرتع ويلعب وإنا له لحافظون ﴾. وفي قولهم لأبيهم يعقوب عليه السلام ﴿مالك لا تأمنا على يوسف﴾ ما يدل دلالة واضحة على أنه كان هناك مراجعات ومواقف قبل هذا الموقف طلبوا إليه أن يأخذوا معهم يوسف إلى حيث يسرحون بأغنامهم وإلى حيث يقضون في يوسف ما دبروه له وكان أبوهم في كل مرة يأبى عليهم صحبة يوسف لهم متعللا بالخوف عليه من أن يصيبه مكروه ، وكانت تلك المرة هي آخر المرات التي بين يعقوب وأبنائه في شأن يوسف وصحبته لهم ، ولهذا نرى أن الأبناء وجدوا في أبيهم هذه المرة شيئاً من الاستعداد لإجابة طلبهم الذي اشتد إلحالحهم به فأتبعوا هذا الإتفهام الإنكاري على أبيهم لعدم ائتمانهم على أخيهم أتبعوا بالطلب المباشر ﴿ أرسله معنا غداً يرتع ويلعب﴾. ونستشعر هنا من توقيت الطلب بظرف الغد أن هذا الحديث كان بينهم وبين أبيهم ليلا ، وبعد أن عادوا من المرعى إنهم يستعجلون الأمر الذي دبروه ويخافون إذا تطاول الزمن به أن تنحل عزيمتهم أو يقع الخلاف بينهم فيما أجمعوا عليه(١).

قوله تعالى : ﴿قال إني ليحزنني أن تذهبوا به وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون(١٣)﴾.

---

(١) بتصرف من كتاب القصص القرآني للشيخ عبد الكريم الخطيب ٤١٤/١ وهو مصدر سابق.

لقد اعتذر إليهم بشيئين : أحدهما أن ذهابهم به ومفارقتهم إياه مما يحزنه لأنه كان لا يصبر عنه ساعة.

والثانى : خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم أو لعبهم وكان ردهم جاهزاً:

﴿ قالوا لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون(١٤)﴾

(وأخذوا يوسف ، وساروا به وعين يعقوب تشيعهم وقلبه يسابقهم وروحه معهم حتى غابوا عن عينه ودخلوا فى الخلاء ، واتسع لهم الفضاء ووصلوا إلى الجب) (١).

قال السدى : إن يوسف – عليه السلام – لما برز مع إخوته أظهروا له العداوة الشديدة ، وجعل هذا الأخ يضربه فيستغيث بالأخر فيضربه ولا يرى فيهم رحيما فضربوه حتى كادوا يقتلونه وهو يقول يايعقوب لو تعلم ما يصنع بابنك؟ فقال أخوه يهوذا أليس قد أعطيتمونى موثقاً أن لا تقتلوه فانطلقوا به إلى الجب يدلونه فيه وهو متعلق بشفير البئر فنزعوا قميصه وكان غرضهم أن يلطخوه بالدم ويعرضوه على يعقوب . فقال لهم ردوا على قميصى لأتوارى به .فقالوا له أدع الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً لتؤنسك ثم دلوه فى البئر حتى إذا بلغ نصفه ألقوه فى البئر ليموت وكان فى البئر ماء فسقط فيه ثم آوى إلى صخرة فقام بها وهو يبكى فنادوه فظن أن رحمة أدركتهم فأجابهم فأرادوا أن يرضخوه بصخرة فقام يهوذا فمنعهم (٢).

----

(١) قصص من القرآن ٧١/١ مصدر سابق.

(٢) من تفسير الفخر الرازى ١٠١/١٨ مصدر سابق.

هذا ما فعله الإخوة مع أخيهم أنهم غلاظ الأكباد إذا كان أبوه قد أحبه فما ذنبه حتى يلقى هذا العذاب إن هذا لشئ عجاب!

وفى هذه اللحظة الشاقة علىالنفس البشرية والظروف القاسية على هذا النبى الكريم نراه يرفع أكف الضراعة إلى الواحد الأحد إلى الحاضر الذى لا يغيب إلى الله فيناجيه ويلتمس منه الفرج فيقول كما ذكرت كتب التاريخ :

يا شاهداً غير غائب ، وياقريباً غير بعيد ، وياغالباً غير مغلوب اجعل لى من امرى فرجاً ومخرجاً. واستجاب الله لدعاء يوسف وحفظه ورعاه قال تعالى : ﴿وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون﴾. والمراد بالوحى النبوة والرسالة وهذا قول طائفة من المحققين . والقائلون بهذا القول اختلفوا فى أنه كان فى ذلك بالغاً أو كان صبياً قال لبعضهم إنه كان فى ذلك الوقت بالغاً وكان سنة سبع عشرة سنة ، وقال آخرون : إنه كان صغيراً إلا أن الله تعالى أكمل عقله وجعله صالحاً لقبول الوحى والنبوة كما فى حق عيسى عليه السلام.

وقالت طائفة : إن المراد من هذا الوحى والإلهام كما فى قوله تعالى : وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴾ ﴿وأوحى ربك إلى النحل﴾ والأول أولى لأن الظاهر من الوحى ذلك قال الفخر الرازى فى تفسيره فإن قيل كيف يجعله نبياً فى ذلك الوقت وليس هناك أحد يبلغه الرسالة ؟

قلنا : لا يمتنع أن يشرفه الله بالوحى والتنزيل ويأمره بتبليغ الرسالة بعد أوقات ويكون فائدة تقديم الوحى تأنيسه وتسكين نفسه وإزالة الغم والوحشة عن قلبه فأخبره الله وهو فى البئر بأنك تنبئ إخوتك بهذه الأعمال بعد هذا اليوم وهم

لايشعرون فى ذلك فى ذلك الوقت إنك يوسف والمقصود تقوية قلبه بأنه سيحصل له الخلاص من هذه المحنة.

يوسف فى البئر

بينما يوسف فى البئر يناجى مولاه ، كان إخوته قد رجعوا إلى أبيهم بعد أن تفدوا جريمتهم وهدأت نفوسهم كما يهدأ الليل ، وفكروا فى حيلة يخدعون بها والدهم يعقوب حتى يعذرهم فى فقدان يوسف. قال تعالى ﴿وجاءوا أباهم عشاء يبكون (١٦) قالوا يا أبانا إنا ذهبنا نستبق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين(١٧). وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا فصبر جميل وا لله المستعان على ما تصفون (١٨)﴾

إن نبى ا لله يعقوب فى انتظار أبنائه وقلبه يرتجف من الخوف والفزع لماذا تأخروا فى المرعى ومعهم يوسف . وقد غابت الشمس وعادتهم أن يرجعوا قبل مغيبها وبينما هو يتساءل مع نفسه فإذا بأولاده وقد حضروا يبكون على غير عادتهم فازداد فزعاً يعقوب عليه السلام وقال : هل أصابكم فى غنمكم شئ . قالوا لا؟ قال : فما فعل يوسف أين هو؟ قالوا يا أبانا ذهبنا نستبق أاى نعدو ونتسابق وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب والدليل على صدقنا قميصه الذى أخذناه من فم الذئب بعد أن أجهز عليه وأكل لحمه وعظمه ثم لعق دمه وكاد يأكل قميصه لولا أن أدركناه وجاءوا على قميصه بدم كذب.

قال الشيخ عبد الكريم : و"هكذا الباطل يفضح نفسه ويخزى أهله لقد جاءوا أباهم عشاء وذلك أول أمارات الكذب الذى جاءوا به معهم إنهم جاءوا ملففين فى ظلام الليل ، خوفاً من أن يفضحهم ضوء النهار ويمزق هذا القناع الزائف المموه بتلك الدموع الكاذبة التى بللو بها خدودهم ثم هذا البكاء هو

فضيحة أخرى تفضح الكـذب..... إنـه تبـاك وليـس بكـاء إنـه مجـرد أصـوات حاكية لصوت البكاء ليس فيه حرقة الكبد ولا زفرة الصدر الكليم:

والعين تعرف من عيني محدثها ... إن كان من حزبها أو من أعاديها

وإن الأذن لقادرة على أن تميز التبـاكى مـن البكـاء وتفـرق بينهمـا وقـد عـرف يعقوب هذه القصة الملفقة التى أصطنعهـا أبنـاؤه مـن قبـل أن ينطقـوا بـالمكروه الذى وقع ليوسف أو يكشفوا عن وجه الذئب الذى ادعوا عليه أنه أكله.

ثم كيف ذهبوا يتسابقون جميعاً و لم يتركوا واحداً منهم مع يوسف أنسوا قولـه لأبيهم (وإنا له لحافظون). وإنه هروباً من الجريمة وبحثاً عن كل وجه تـبرق منـه بارقة سراب للنجاة تراهم يستكثرون من وسائل التضليـل والتعميـة حتـى إنهـم ليحملون معهم إلى أبيهم قميص يوسف ملطخا بالدم الذى نزف منـه والذئـب يفترسه وكانوا لطخوا القميص بدم جدى قد ذبحوه ولكن هذا التدبير قـد جـاء على غير ما قدروا فكان شهادة عليهم قائمة بأنهم غير صادقين فيما جـاءوا بـه من خبر يوسف وقد قيل بأن القميص الذى جاءوا ملطخاً بالدم كان سـليما لم يمسه الذئب المزعوم بمخلب أو ناب ولهذا عجـب يعقـوب حـين رأى القميـص على تلك الحال وقال : تا لله ما رأيت كاليوم ذئباً أحلم من هذا أكل ابنـى و لم يمزق قميصه؟

و لم يجد يعقوب عزاءاً على هذا المصاب الفادح إلا أن يلوذ بالصبر وأن يسـتعين بـا لله علـى احتمـال هـذا الابتـلاء ... " فصبر جميـل وا لله المستعان علـى مـا تصفون" (١)

---

(١) راجع القصص القرآنى فىمنطوقه ومفومه ٤١٧/١ ، مصدر سابق.

النجدة الآلهية

﴿ وجاءت سيارة فأرسلوا واردهم فأدلىدلوه قال يابشرى هـذا غـلام وأسـروه بضاعة وا لله عليم بما يعملون (١٩)﴾.

بين الحق تبارك وتعالى كيف سهل السبيل فى خلاص يوسف عليه السـلام مـن تلك المحنة القاسية . فقال : (وجاءت سيارة) أى قوم يسيرون مـن أرض مدين إلى مصر فضلوا الطريق وقد أعياهم السفر وحطوا رحالهم بجوار البئر الذى فيـه يوسف وأرسلوا واردهم الذى يرد الماء ويستقى للقوم فأدلى دلوه ثم رفعـه إليـه بعد أن ظن أنه امتلأ ماء حتى إذا أخرج الدلو من الجب وجد غلاماً جميـلا قـد تعلق بالدلو فصاح الرجل ، وقال : (بشرى هذا غلام) وسـبب البشـارة أنهـم وجدوا غلاماً فـى غايـة الحسـن وقـالوا نبيعـه بثمـن عظيـم ويصـير ذلـك سبباً لحصول الغنى واليسار.

(وأسروه بضاعة) الوارد الذى أخرج يوسف من البئر هو وأصحابه أخفوا عـن الرفقة معهم أنهم وجدوه فى البئر وذلك لأنهم قالوا إن قلنا للسـيارة إلتقطنـاه شاركونا فيه ، وإن قلنا اشتريناه : سألونا الشركة فالأصوب أن نقـول إن أهـل الماء جعلوه بضاعة عندنا علىأن نبيعه فى مصر.

(وا لله عليم بما يعملون) : والمراد منه أن يوسف عليه السلام لما رأى الكواكـب والشمس والقمر فى النوم سجدت له وذكر ذلك حسده أخوتـه واحتـالوا فـى إبطال ذلك عليه فأوقعوه فى البلاء الشديد حتى لا يتيسر له ذلك المقصود وأنـه تعالى جعل وقوعه فى ذلك البلاء سبباً إلى وصوله إلى مصر، ثم تمـادت وقائعـه إلى أن حصل ذلك الذى رآه فىالنوم فكان العمل الذى عمله الأعداء فى دفعه

عن ذلك المطلوب صيره الله تعالى سبباً لحصول ذلك المطلوب فلهذا المعنى قال : ﴿والله عليم بما يعملون﴾(١).

﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين (٢٠)﴾. والمعنى أن أصحاب هذه القافلة قد (شروه) أى باعوه (بثمن بخس) فيه غبن على البائعين لأنهم باعوا الجوهر بيع الحصا ، ورضوا بأن يتقاضوا فى مقابل يوسف (دراهم معدودة) ولو عرفوا قدر هذا الجوهر الذى فى أيديهم لضنوا به على البيع حيث لا يقدر بثمن ولو كان القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ولكنهم فكروا فى الأمر وقالوا لقد عهدنا أن الآبار تهدى للناس ماءاً ولا تهدى لهم غلماناً ولابد أن هناك جريمة! جريمة إخفاء هذا الغلام عن أهله .

وإننا إذا انتظرنا فى هذا المكان ،حتى تنكشف الجريمة فيضيع الوقت بين التحقيق والتدقيق ، وربما نسبت إلينا جريمته ، ولابد أن نخفى هذا الولد وأن نحمل بضاعتنا ونرحل إلى مصر لنتخلص منه ونبيعه بثمن ، أى ثمن لمن يرغب فيه ويشتريه(٢)

قال الفخر الرازى: إن بائع يوسف هم الذين استخرجوه من البئر وقال محمد بن إسحاق ربك أعلم ،إخوته باعوه أم السيارة.

قال ابن عباس :إن إخوة يوسف لما طرحوا يوسف فى الجب ورجعوا عادوا بعد ثلاث يتعرفون خبره ، فلما لم يروه فى الجب ورأوا آثار السيارة طلبوهم

----

(١) بتصرف من تفسير الفخر الرازى ١٠٩/١٨ مصدر سابق.

(٢) راجع قصص من القرآن ٧٣/١ مصدر سابق والقصص للقرآن ٤٣١/١ مصدر سابق أيضا.

فلما رأوا يوسف قالوا: هذا عبدنا أبق منا فقالوا لهم فبيعوه منا فباعوه منهم ، والمراد من قوله (وشروه) أى باعوه يقال : شريت الشئ إذا بعته ، وإنما وجب حمل هذا الشراء على البيع لأن الضمير فى قوله ﴿وكانوا فيه من الزاهدين ﴾ عائد إلى بشئ واحد لكن الضمير فى قوله ﴿وكانوا فيه من الزاهدين ﴾عائد إلى الأخوة فكذا فى قوله (وشروه) يجب أن يكون عائدا إلى الأخوة وإذا كان كذلك فهم باعوه فوجب حمل هذا الشراء على البيع(١)

يوسف فى مصر

﴿ وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن الناس لا يعلمون(٢١) ﴾

رحمك الله يا يوسف لقد رأيت الأهوال ، وانتقلت من بلد إلى بلد وتحولت من يد إلى يد آثمة أرادت قتلك فألقتك فى ظلام البئر الدامس حتى أنقذتك يد من منجية وهى يد الوارد الذى أخرجك من الجب حتى باعوك بثمن بخس إلى صاحب يد رحيمة فى مصر فأحبك يا حبيب الله وأوصى امرأته بإكرامك حتى قضى الله فى أمرك ما أراد والله إذا أراد حصل المراد.

أن هذا المصرى الكريم الذى اشترى يوسف عليه السلام لاندرى ما اسمه إلى الأن لأن القرآن لم يذكره لنا ووجد يوسف عليه السلام فى مصر أهلا بدل أهله بدل أهله وأبا وأما فى مكان أبيه وأمه بهذا أراد الله ليوسف الخير فأنقذه

----

(١) راجع تفسير الفخر الرازى ١١٠/١٨ مصدر سابق.

من الهلاك وعاش فى قصر مشيد بعد أن كان بالأمس فى الجب ، وأصبح فى وسط أخوة لا يحبونه ولا يريدون له البقاء ، وهدأت نفسه ، واتسع فكره ونما جسمه وازدهر جماله. قال تعالى : ﴿ ولما بلغ أشده آتيناه حكما وعلما وكذلك نجزى المحسنين﴾ لقد كان يوسف من المحسنين ، لم تفسد فطرته ما أصابه من مكر أخوته و لم تزحزحه الأهوال عن طاعة الله جل جلاله.

الفتنة الكبرى

﴿وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقال هيت لك قال معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى إنه لا يفلح الظالمون (٢٣)﴾.

" الإنسان عقل وعواطف ، وعواطف الشاب أكثر وأعنف من عقله ، ولكن الله غلب عقل يوسف على عواطفه ، فرأى يوسف أن من الجحود والنكران أن ينسى جميل صاحب القصر ، وأنه آواه ورباه ، وأنه أفسح له حتى أكتمل فى وعيه وعقله وخلقه ، إنه أنزله من نفسه منزلة الوالد ، وأن هذه المرأة أصبحت منه بمنزلة الأم ، ولا ترتفع عين الولد فى أمه مهما تاهت فى ضلالها وصاحب القصر قد ائتمنه على عرضه وماله ويرى يوسف أن الله سبحانه قد ساق إليه كل هذا النعيم ، فكيف يجعل شكره فى معصيته ؟ وكيف يشكر صاحب القصر بهتك عرضه ؟ " (١)

والمقصود أنها دعته إليها وحرصت على ذلك أشد الحرص ﴿وقالت هيت لك﴾ أى هيأت نفسى لك فأقبل فرد عليها ﴿معاذ الله إنه ربى أحسن مثواى﴾

----

(١) قصص من القرآن ص٧٦ مصدر سابق.

حين قال لك أكرمى مثواه فلا يليق أن أجازيه على ذلك الإحسان بهذه الخيانة ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ الذين يجازون الإحسان بالإساءة.

وقال الإمام الفخر الرازى : "ذكر يوسف فىالجواب عن كلامها ثلاثة أشياء :

أحدهما : قوله (معاذ الله).

والثانى : قوله تعالى ﴿إنه ربى أحسن مثواى﴾.

والثالث : قوله ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾.

فماوجه تعلق بعض هذا الجواب ببعض؟

والجواب : هذا الترتيب فى غاية الحسن وذلك لأن الانقياد لأمر الله تعالى وتكليفه أهم الأشياء لكثرة إنعامه وألطافه فى حق العبد فقوله ﴿ معاذ الله ﴾ إشارة إلى أن حق الله يمنع هذا العمل وأيضاً حقوق الخلق وإحسانه بالإساءة ، وأيضاً صون النفس عن الضرر واجب ، وهذه اللذة لذة قليلة يتبعها خزى فى الدنيا ، وعذاب شديد فى الآخرة واللذة القليلة إذا لزمها ضرر شديد فالعقل يقتضى تركها والاحتراز عنها ﴿ إنه لا يفلح الظالمون﴾ فثبت أن هذه الجوابات الثلاثة مرتبة على أحسن وجوه الترتيب.(١)

فخلاصة القول فى تفسير قوله تعالى ﴿وهم بها﴾ أن الهم ليس على ظاهره لأن تعليق الهم بذات المرأة محال لأن الهم من جنس القصد والقصد لايتعلق بالذوات الباقية فثبت أنه لابد من إضمار فعل مخصوص يجعل متعلق ذلك الهم وذلك الفعل غير مذكور فهم زعموا أن ذلك المضمر هو إيقاع الفاحشة بها ونحن نضمر شيئاً آخر يغاير ما ذكروه وبيانه من وجوه:

----

(١) تفسير الفخر الرازى ١١٧/١٨ مصدر سابق.

الأول : المراد أنه عليه السلام هم بدفعها عن نفسه ومنعها من ذلك القبيح لأن الهم هو القصد فوجب أن يحمل فى حق كل أحد على القصد الذى يليق به فاللائق بالمرأة القصد إلى تحصيل اللذة ، واللائق بالرسول المبعوث إلى الخلق القصد إلى زجر العاصى عن معصيته وإلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يقال:همت بفلان أى بضربه وبدفعه.

فإن قالوا : فعلى هذا التقدير لا يبقى لقوله:﴿ لولا أن رأى برهان ربه﴾ فائدة.

قلنا : بل فيه أعظم الفوائد وبيانه من وجهين :

الأول : أنه تعالى أعلم يوسف أنه لو هم بدفعها لقتلته أو لكانت تأمر الحاضرين بقتله ، فأعلمه الله تعالى أن الامتناع من ضربها أولى صوناً للنفس عن الهلاك.

والثانى : أنه عليه السلام لو اشتغل بدفعها عن نفسه فربما تعلقت به فكان يتمزق ثوبه من قدام . وكان فى علم الله أن الشاهد يشهد بأن ثوبه لو تمزق من قدام لكان يوسف هو الخائن ، ولو كان ثوبه ممزقاً من خلف لكانت المرأة هى الخائنة فالله تعالى أعلم يوسف بهذا المعنى (١).

فجرى يوسف نحو الأبواب المغلقة يفتحها ورأت المرأة أنه يفر منها فجرت وراءه تناديه فلم يلتفت إليها ولحقت به قرب الباب فشدته من ثيابه فمزقتها فلم يلتفت إليها والذى أختاره أن يوسف عليه السلام لم يقع منه هم بها البتة بل إن الهم منفى لوجود رؤية برهان ربه ، وجواب لولا مقدم كما تقول قد كنت من الهالكين لولا أن فلانا خلصك ولاعبرة لقول الزجاج : أن تقديم

----

(١) المرجع السابق بتصرف.

جواب لولا شاذ وغير موجود فى الكلام الفصيح فتقول له إن تقديم جواب لولا شاذ وغير موجود فى الكلام الفصيح فتقول له إن تقديم جواب لولا جائز وقد نقل عن سيبويه إنه قال إنهم يقدمون الأهم فالأهم وهل هناك أهم من عصمة نبى كريم ابن نبى كريم ؟

واستدل الإمام الفخر الرازى بفساد قول الزجاج بقوله تعالى : ﴿ وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدى به لولا أن ربطنا على قلبها ﴾. وأجاب عن السؤال الذى يقول فيه صاحبه : لو لم يوجد الهم لم يبق لقوله ﴿لولا أن رأى برهان ربه ﴾ فائدة : فقال رحمه الله بل فيه أعظم الفوائد ، وهو بيان أن ترك الهم بها ما كان لعدم رغبته فى النساء وعدم قدرته عليهن بل لأجل أن دلائل دين الله منعته(١) ، فالهم الذى قصدته المرأة هو هم شهوة ولذة إلا أن يوسف عليه السلام لم يجبها و لم يمكنها من غرضها لأنه معصوم وعنده حصانة ربانية لا تفارقه ليلا ولا نهاراً أما قوله ﴿وهم بها﴾ فإن المعنى الذى لا ينصرف الهم إلا إليه هو دفعها عنه ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾وهو آية من آيات الحفظ والعصمة فهو عليه السلام أراد أن يدفعها عنه ويبعدها عن هذا الطريق ولكنها تشبثت به وفتح الباب ليخرج فإذا بزوجها أمام الباب.

قال تعالى : ﴿ واستبقا الباب وقدت قميصه من دبر وألفيا سيدها لدا الباب قالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم (٢٥)﴾ ذهب يوسف عليه السلام مسرعا إلى الباب ليخرج والمرأة تجرى وراءه فلم تصل إلا إلى دبر القميص فمزقته ، وفى ذلك الوقت حضر زوجها فأسرعت إليه

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١٢٠/١٨

بالشكوى وقالت ما جزاء من أراد بأهلك سوءا واقترحت الجزاء من عند نفسها إلا أن يسجن أو عذاب أليم ، ونطق يوسف عن نفسه ﴿هي راودتني عن نفسي﴾ وهناك عدة أمور كثيرة تدل على صدق يوسف عليه السلام:

١- أن يوسف كان يجرى نحو الباب للهروب من المرأة والرجل الطالب للمرأة لا يخرج بهذه السرعة.

٢- أن العزيز شاهد زوجته في كامل زينتها أما يوسف فما كان عليه أثر من آثار تزيين النفس فكان إلحاق التهمة بالمرأة أولى.

٣- أنهم كانوا قد شاهدوا يوسف وأحواله الطيبة المهذبة طوال المدة التي قضاها معهم في القصر وما شاهدوا منه ما يدل على هذا الفعل بل إنه على جانب عظيم من الأخلاق.

٤- أن المرأة ما نسبته إلى طلب الفاحشة على سبيل التصريح بل ذكرت كلاما مجملا مبهماً أما يوسف فإنه صرح بالأمر ولو أنه كان متهما لما قدر على التصريح.

شاهد يوسف عليه السلام

قال تعالى : ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ قيل كان صغيراً فأنطقه الله وهذا مروى عن ابن عباس وأبى هريرة والحسن البصري وسعيد بن جبير واختاره ابن جرير الطبرى ليكون أدل على الحجة وقيل كان ابن عم لها وكان مع زوجها لدى الباب ولا ينافى هذا قول قتادة أن الشاهد كان حليما من أهلها ذا رأى

يأخذ الملك برأيه ويستشيره ، وكان الشاهد من أهلها ليكون أوجب للحجة عليها وأوثق لبراءة يوسف وأنفى للتهمة، وقيل كان طفلاً صغيراً أنطقه الله. ﴿إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين ﴾ أى لأنه يكون قد راودها فدافعته حتى قدت مقدم قميصه. ﴿وأن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين﴾ أى لأنه يكون قد هرب منها فاتبعته وتعلقت فيه فانشق قميصه لذلك وهذا ماحصل (١).

ولهذا قال تعالى :﴿ فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ﴾أى هذا الفعل من مكركن ومن عملكن ، أنت روادتيه عن نفسه ثم اتهمتيه بالباطل ، ولما ظهرت ، براءة يوسف عن ذلك الفعل حكى الله تعالى أن الشاهد قال : " يوسف أعرض عن هذا " وهذا القول إما من قول زوج المرأة أو من كلام الشاهد ومعناه أعرض عن ذكر هذه الواقعة حتى لا ينتشر خبرها ثم التفت إلى المرأة فقال لها ﴿ واستغفرى لذنبك إنك كنت من الخاطئين﴾ فأمر يوسف أولاً بالكتمان وأمر المرأة بالاستغفار من الذى صدر منها، والتوبة إلى ربها فإن العبد إذا تاب تاب الله عليه .

---

(١) راجع قصص الأنبياء لابن كثير ٣٣٢/١ مصدر سابق.

انتشار الخبر فى المدينة

قال تعالى : ﴿وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حبا إنا لنراها فى ضلال مبين (٣٠) فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن واعتدت لهن متكأ وآتت كل واحدة منهن سكيناً وقالت أخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقلن حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم (٣١) قالت فذلكن الذى لمتننى فيه ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما أمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين(٣٢).﴾

يذكر الله ما كان من موقف نساء المدينة فى الطعن على امرأة العزيز ، والتشنيع عليها فى مراودتها فتاها عن نفسه وحبها الشديد له وكيف يكون منها ذلك وهى زوجة العزيز إنها لفى ضلال واضح وبعد عن طريق الصواب والرشاد.

" فلما سمعت بمكرهن " أى بتشنيعهن عليها والتنقص فى حقها أرادت أن تبين عذرها وتظهر أن هذا الفتى ليس ككل الفتيان فأرسلت إليهن واعتدت لهن ضيافة وأحضرت لحما أو فاكهة تقطع بالسكاكين كالتفاح والبرتقال والأترج وما شابه ذلك وآتت كل واحدة منهن سكينا ، وقالت ليوسف (أخرج عليهن)أى أدخل عليهن فخرج فكان كالبدر (فلما رأينه أكبرنه) أى أعظمنه وهبنه فما رأت واحدة منهن فتى أجمل منه وبهرهن حسنه حتى اشتغلن بالنظر عن أنفسهن وجعلت كل واحدة تحز بالسكين فى يديها ولا تشعر بالجراح ﴿وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم﴾. ولهذا قالت إمرأة

العزيز وكأنها انتصرت عليهـن وأظهـرت عذرهـا فـى حبهـا ليوسـف أمـامهن ﴿فذلك الذى لمتننى فيه﴾ ثم مدحته وبـرأت سـاحته ووصفتـه بالعفـة والنزاهـة التامة ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ أى إمتنع ثم أردفت قائله مهددة لـه [illegible] ﴿ولئن لم يفعـل ما آمـره ليسـجنن وليكونـا مـن الصـاغرين قـال رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين (٣٣) فاسـتجاب لـه ربـه فصـرف عنـه كيدهـن إنـه هـو السـميع العليم(٣٤)﴾

* * *

أن امراة العزيز قالت للنسوة إن هذا الـذى صـدر منكـن مـن الإكبـار وتقطيـع الأيدى ونفى البشرية عنه وإثبات الملكية له هو الذى لمتننى فيه أى فى محبته وأنا قد رادوته عن نفسه فاستعصم وأبى أن يوافقنى فيما أردت منه ولئن لم يفعل مـا أريد ليسجنن وليكونن من الصاغرين فقالت له النسوة على سبيل الشـفقة عليه أطعها يايوسف فقال ﴿ رب السجن أحب إلى مما يدعوننى إليه ﴾ فأسـند الفعـل إليهن [illegible] لما نصحنه وزيّنّ له مطاوعتها وخوفنه من إلقائه فى السجن فالتجأ إلى الله وقال : ﴿رب السـجن أحـب إلى ﴾ وأهـون وأيسـر علـى نفسـى مـن الوقوع فى هذه الفاحشة ﴿وإلا تصرف عنى كيدهن أصب إليهـن وأكـن مـن الجـاهلين (٣٣) فاسـتجاب لـه ربـه فصـرف عنـه كيدهـن إنـه هـو السـميع العليم(٣٤).﴾

أدلة براءة يوسف عليه السلام

بالإضافة إلى ما ذكرناه سابقاً من براءة نبى الله يوسف مما نسبوه إليه من السوء الذى لا يليق بمقامه السامى وعلو مرتبته أسوق مجموعة من الأدلة للدفاع عن هذا النبى الكريم عليه السلام.

أحدهما : أن ماهية السوء والفحشاء مصروفة عنه عليه السلام بدليل قوله تعالى : ﴿ كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء﴾ ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ فكفى بشهادة الله له شهادة.

ثانيها : أن الأنبياء الكرام عليهم السلام متى صدرت منهم زلة أو هفوة أو خلاف الأولى استعظموا ذلك وأتبعوها بإظهار الندم وبادروا بالتوبة ولو كان يوسف وقع فى معصية لكان أتبعها بتوبة واستغفار ، ولو أتى بتوبة لحكى الله تعالى عنه إتيانه بها وحيث لم يوجد شئ من ذلك علمنا علم اليقين أنه عليه السلام ما صدر عنه فى هذه الواقعة ذنب ولا معصية.

ثالثها : أن كل من له تعلق بهذه الواقعة قد شهد ببراءة يوسف.

١- قال يوسف النبى الصادق ﴿هى راودتنى عن نفسى ﴾

٢- اعتراف المرأة للنسوة حيث قالت : ﴿أنا راودته عن نفسه فاستعصم ولئن لم يفعل ما آمره ليسجنن وليكونا من الصاغرين﴾

٣- شهادة الشاهد من أهلها حيث قال : ﴿ إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين وإن كان قميصة قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين . فلما رأى قميصه قد من دبر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم.﴾

رابعها : إن الحق تبارك وتعالى قد مدح يوسف عليه السلام فقال ﴿ إنه من عبادنا المخلصين ﴾ ونلاحظ أن الله قد شهد ببراءة يوسف فى قوله تعالى ﴿كذلك لنصرف عنه السوء ﴾ ففى قوله "لنصرف" فاللام للتوكيد والمبالغة وفى قوله "لنصرف عنه السوء والفحشاء" أن كذلك نصرف عنه الفحشاء كما صرف عنه السوء ، وفى قوله تعالى " إنه من عبادنا " أعظم تزكية ليوسف عليه السلام وفى قوله " المخلصين " قراءتان الأولى باسم الفاعل وهذا يدل على كونه آتياً بالطاعات والقربات مع صفة الإخلاص.

والقراءة الثانية باسم المفعول وهذا يدل على أن الله تعالى استخلصه لنفسه واصطفاه لحضرته وعلى كلا القراءتين فإنه من أدل الألفاظ على كونه منزهاً عما أضافوه إليه.

خامسها : أن إبليس أقر بطهارة يوسف حيث قال الله تعالى فى محكم التنزيل فى بيان عجز إبليس عن إغواء المخلصين ﴿قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين﴾ (١) فأقر إبليس بأنه لا يمكن إغواء المخلصين لأنهم من الصفوة المختارة التى حفظها الله ورعاها ﴿إن عبادى ليس لك عليهم سلطان وكفى بربك وكيلا﴾(٢)

سادسها : جاء اعتراف إمرأة العزيز صريحاً بأن يوسف برئ قال الله تعالى:

﴿ قالت إمرأة الغزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن -----

----

(١) سورة ص الآيات ٨٣، ٨٣

(٢) سورة الإسراء الآية ٦٥.

الصادقين(٥١) ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين (٥٢) وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم(٥٣)﴾. هذه أدلة قاطعة على أن يوسف برئ من هذه التهمة الباطلة التى نسبها إليه الجهال ولا حول ولا قوة إلا با لله العلى العظيم. قال تعالى ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين (٣٥) ﴾ لقد ظهرت براءة يوسف من كل الوجوه ولكن العزيز أراد أن يقضى على الآشاعة المنتشرة فى المدينة و يصد هذة العاصفة الجارفة ويمنع عن عرضه مقالة السوء فأبعد يوسف عليه السلام من أعين الناس وأدخل فى سجن القصر ظلما وعدوانا .

﴿ودخل معه السجن فتيان قال أحدهما إنى أرانى أعصر خمراً و قال الأخر إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه نبأنا بتأويله إنا نراك من المحسنين (٣٦)﴾ ، قال أهل العلم هما غلامان للملك ، الأول صاحب شرابه و الثانى صاحب طعامه نما إلى الملك أن صاحب الطعام يريد أن يضع السم للملك وظن أن صاحب الشراب يعاونه فى هذه الخطة فأمر بحبسهما و تصادف أن رأيا فى ليلتهم رؤيا فأصبحا يقصان ما رأيا على يوسف عليه السلام . فقال الساقى الذى يسقى الملك ﴿إنى أرانى أعصر خمراً ﴾ و الآخر﴿إنى أرانى أحمل فوق رأسى خبزاً تأكل الطير منه نبأنا بتأويله إنى نراك من المحسنين﴾ أى نراك تؤثر الإحسان ، وتأتى بمكارم الأخلاق وجميع الأفعال الحميدة فقد كان يوسف عليه السلام يعود مرضاهم و يؤنس حزينهم و كان شديد المواظبة على

الطاعات من الصوم و الصلاة ومن كان كذلك فإنه يوثق بما يقوله وخاصة فى تعبير الرؤيا(١).

دعوة يوسف عليه السلام إلى التوحيد

﴿ قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما ذلكما مما علمني ربي إني تركت ملة قوم لا يؤمنون با لله وهم بالآخرة هم كافرون(٣٧) واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك با لله من شئ ذلك من فضل ا لله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون (٢٨) ياصاحبي السجن أأرباب متفرقون خير أم ا لله الواحد القهار (٣٩) ما تعبدن من دونه إلى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل ا لله بها من سلطان إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون(٤٠).﴾

معنى الآيات

قبل أن يعبر يوسف عليه السلام للرجلين رؤيتهما أخبرهما أنه عليم بتأويل الأحاديث خبير بأمرها وقال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله قبل أن يأتيكما إنه من تعليم ا لله لى لأنى مؤمن به موحد له متبع ملة آبائى الكرام : إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك با لله من شئ ذلك من فضل ا لله علينا ، بأن هدانا للتوحيد وأمرنا أن ندعو الناس إليه ونأمرهم به.

﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون ﴾ : ا لله على نعمه التى لا تعد ولا تحصى ، وأعظم نعمة هى نعمة التوحيد وطاعة ا لله فيما أمر والبعد عما نهى.

----

(١) راجع قصص الأنبياء لابن كثير ٣٢٦/١ مصدر سابق.

ثم دعاهم إلى التوحيد وترك عبادة الأوثان وكل المعبودات الباطلة وهون من شأنها فقال : ﴿ ياصاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن الحكم إلا لله﴾ فهو وحده المتصرف فى مصائر العباد ، وهو الذى أمر الخلائق بالتوحيد وعرفهم الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يهتدون إلى طريق الله رغم وضوحه وبيانه وحججه وبراهينه.

يوسف عليه السلام يعبر الرؤيا للرجلين

﴿ياصاحبى السجن أما أحدكما فيسقى ربه خمرا وأما الآخر فيصلب فتأكل الطير من رأسه قضى الأمر فيه تستفتيان(٤١).﴾

لما قرر يوسف عليه السلام أمر التوحيد والنبوة عاد إلى الجواب عن تعبير رؤيا صاحبى السجن فقال للأول وهو صاحب شراب الملك بعد ثلاثة أيام يردك الملك إلى عملك فتصير كما كنت بل أحسن ، وقال الثانى : بعد ثلاثة أيام يوجه إليك الملك عند انقضائهن فيصلبك وتأكل الطير من رأسك . عند ذلك قالا : لم نر شيئا فقال لهما يوسف عليه السلام :

﴿قضى الأمر الذى فيه تستفيان (٤١) وقال الذى ظن أنه ناج منهما اذكرنى عند ربك فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث فى السجن بضع سنين(٤٢)﴾

يخبر القرآن أن يوسف قال للرجل الذى ظن أنه ناج ، أذكرنى عند الملك وأخبره أننى مظلوم وفى هذا دليل على الأخذ بالأسباب ولا ينافى ذلك التوكل

على الله فالاستعانة بالناس فى دفع الظلم جائزة فى الشريعة إلا أن حسنات الأبرار سيئات المقربين وأن مصلحة يوسف كانت فى عدم الرجوع إلى المخلوقين وكان عليه أن يقتدى بجده إبراهيم الخليل عندما ألقى فى النار جاءه جبريل عليه السلام فقال له يا إبراهيم ألك حاجة.

قال : أما إليك فلا وأما إلى الله فعلمه بحالى يغنيه عن سؤالى(١) أن الرجل الناجى الذى وصاه يوسف أن يذكر قضيته للملك أنساه الشيطان أن يذكر للملك وصية يوسف فترتب على ذلك أن يوسف لبث فى السجن بضع سنين من ثلاث إلى التسع والله وحده يعلم مقدارها.

بداية الفرج

قال تعالى : ﴿وقال الملك إنى أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات يا أيها الملأ أفتونى فى رؤياى إن كنتم للرؤيا تعبرون (٤٣) قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين (٤٤) وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون (٤٥) يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون (٤٦) قال تزرعون سبع سنين دأبا فما حصدتم فذروه فى سنبله إلا قليلا مما تأكلون (٤٧) ثم يأتى

---

(١) وإن كان هذا الكلام على لسان إبراهيم فهو من الإسرائيليات التى نقلها المفسرون فى كتبهم عن أهل الكتاب

من بعد ذلك سبع شداد يأكلن ما قدمتم لهن إلا قليلا مما تحصنون (٤٨) ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون (٤٩).﴾ هذه الرؤيا التى رآها الملك كانت من أسباب خروج يوسف عليه السلام من السجن وذلك أن ملك مصر فى زمن يوسف رأى أنه على حافة نهر وكأنه خرج منه سبع بقرات سمان فجعلن يرتعن فى روضة هناك فخرجت سبع هزال من ذلك النهر فأكلت البقرات السمان فقام من نومه مذعوراً ثم نام فرأى سبع سنبلات خضر وأخر يابسات يأكلن الخضر فقام من نومه مرة ثانية مذعوراً وجمع الملأ من قومه وطلب منهم تعبير الرؤيا فقالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين فعند ذلك تذكر الرجل الناجى الذى خرج من السجن وكان يوسف عليه السلام قال له اذكرنى عند الملك وأخبره أننى مظلوم ولكن الشيطان أنسى هذا الرجل وصية يوسف فلبث يوسف فى السجن بضع سنين ولهذا عندما تذكر الرجل أن هناك فى السجن رجل على علم بتأويل الرؤيا وتعبيرها ، ﴿وقال الذى نجا منهما وادكر﴾ أى تذكر ﴿بعد أمة ﴾ أى بعد فترة من الزمان فقال ﴿ أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون ﴾ إلى يوسف فلما أرسلوه ودخل عليه قال يوسف أيها الصديق أفتنا فى سبع بقرات سمان يأكله سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات لعلى أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون فعبر يوسف عليه السلام ما كان من رؤيا الملك الدالة على وقوع سبع سنين من الخصب ويعقبها سبع عجاف ثم يأتيهم الغيث والخصب والنما ثم يأتى من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ما كانوا يعصرونه من قبل من القصب

والعنب والزيتون والسمسم وما شابه ذلك فأرشدهم نبى الله يوسف إلى طريقة فريدة فيها خيرهم وسعادتهم ففى سنى الخصب يدخرون الحبوب فى السنابل إلا ما يعد للأكل فيبقى المحصول فى الحقول وفى أماكن معدة للتخزين الجيد ، وفى السبع العجاف يقللون البذر ، وهذا يدل على كمال العلم وكمال الرأى والفهم وعندما رجع الرجل إلى الملك وأحاطه علماً بتعبير يوسف عليه السلام لرؤيا الملك ، عند ذلك أصدر أوامره ﴿وقال الملك ائتونى به فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن إن ربى بكيدهن عليم ﴾ عند ذلك أمر الملك باجتماع موسع يضم النسوة التى كن فى ضيافة إمرأة العزيز ووجه إليهن السؤال:

﴿ قال ماخطبكنْ إذ راودتن يوسف عن نفسه قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء قالت إمرأت العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين (٥١) ذلك ليعلم أنى لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدى كيد الخائنين(٥٢).﴾ عند ذلك علم الملك أن يوسف برئ من هذه التهمة الباطلة وأنه حبس مظلوماً وعلم من النساء أنه إنسان فاضل شريف وقالت إمرأة العزيز الآن قد ظهر الحق أنا راودته عن نفسه وإنما اعترفت المرأة أن المسألة كانت مراودة منها وقد اعترفت بذلك ليعلم العزيز أنها راودته فامتنع و لم يقع معها فاحشة.

(وإنه لمن الصادقين) أى أن يوسف عليه السلام صادق عندما قال" هى راودتنى عن نفسى " وإنما اعترفت بذلك ليعلم العزيز أنى لم أخنه فى السر ولا فى

العلانية لأن الله لا يهدى كيدن الخائنين الذين يخونون فى أعراضهم وشرفهم وأموالهم. ﴿ وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى إن ربى غفور رحيم (٥٣) وقال الملك أئتونى به أستخلصه لنفسى فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين (٥٤) قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم(٥٥)﴾ لما ظهرت براءة يوسف قال الملك ائتونى به أجعله من خاصتى ومن أكابر دولتى ولما التقى به وكلمه ﴿قال إنك اليوم لدينا مكين أمين ﴾ ذو مكانة عالية وأمانة نادرة.

﴿ قال اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم ﴾، أى على خزائن أرض مصر والتصرف فى أمور الخلق وهذا واجب عليه لأنه نبى معصوم من كل ما يخل بذمته المالية ، وكان يوسف قد علم عن طريق الوحى أن القحط وقلة الطعام من أسباب هلاك البشر فلذلك سارع فطلب أن يكون أميناً على خزائن أرض مصر لينقذ أهلها ومن جاورهم من الخلائق فأجيب إلى طلبه وجادت السماء بالمطر وفاض النيل وأخصبت الأرض وعم الخير البلاد وأمر يوسف الناس أن يدفعوا لمخازن الدولة ما يفيض عن حاجتهم يتركونه فى سنبله ويجمعونه فى المخازن التى اعدت لذلك ، ونجح فى خطته الحكيمة وامتلأت المخازن بالحبوب التى تركت فى السنابل غاماً بعد عام سبعة أعوام حتى فاضت المخازن بالرزق الوفير ، ثم قلت الأمطار وشح النيل بالماء وأجدبت الأرض ،وأنكرت الزرع وأكلت البذر وجف النبات ، وشاع الجوع وخاف الناس الموت والهلاك وذهبوا إلى يوسف فقام بفتح المخازن ووزع الأقوات على الجياع ، وأمن الناس على طعامهم وعدل فى العطاء فحسن ذكره وتسرب

الحديث حتى خطى الحدود ، وملأ ربوع الشام وفى أرض كنعان يعيش أهلها فى ضيق من العيش وسمعوا عن مصر ما سمعوا من بحبوحة فى الخير وسعة الرزق ، وعلموا أن وزيرها الكريم لا يضن على من يقصده ولا يبخل على الفقراء والمحتاجين(١).

﴿ وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء نصيب برحمتنا من نشاء ولا نضيع أجر المحسنين ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون(٥٧)﴾

وخرج إخوة يوسف العشرة من بلاد كنعان قاصدين مصر. والقرآن الكريم يصور لنا مشهد دخول هؤلاء الإخوة على أخيهم يوسف بأسلوب رصين مكين .قال تعالى : ﴿ وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون (٥٨) ولما جهزهم بجهازهم قال ائتونى بأخ لكم من أبيكم ألا ترون أنى أوفى الكيل وأنا خير المنزلين (٥٩) فإن لم تأتونى به فلا كيل لكم عندى ولا تقربون (٦٠) قالوا سنراود عنه أباه وإنا لفاعلون (٦١) وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم فى رحالهم لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم لعلهم يرجعون (٦٢) فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا منع منا الكيل فأرسل معنا أخانا نكتل وإنا له لحافظون (٦٣) قال هل آمنكم عليه إلا كما آمنتكم على أخيه من قبل فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين (٦٤) ولما فتحوا متاعهم وجدوا بضاعتهم ردت إليهم قالوا يا أبانا ما نبغى هذه بضاعتنا ردت إلينا ونمير أهلنا ونحفظ

---

(١) بتصرف من كتاب قصص من القرآن ٨٦/١ مصدر سابق.

أخانا ونزداد كيل بعير ذلك كيل يسير (٦٥) قا ل لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقاً من ا لله لتأتننى به إلا أن يحاط بكم فلما آتوه موثقهم قال ا لله على ما نقول وكيل (٦٦) وقال يابنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة وما أغنى عنكم من ا لله من شئ إن الحكم إلا لله عليه توكلت وعليه فليتوكل المتوكلون(٦٧)﴾

نفهم من هذه الآياتأن أخوة يوسف لما رجعوا إلى أبيهم ورأوا آثار إكرام العزيز لهم وكيف رد بضاعتهم إليهم وأعطاهم غلة بلا ثمن وطلب منهم أن يأتوه بأخ لهم من أبيهم وهو بنيامين ووعدوا أباهم أن يحافظوا على أخيهم ولكنه عليه السلام قال لن أرسله معكم حتى تؤتوني موثقاً من ا لله أن تأتوني به إلا أن يحاط بهم فلما أعطوه العهد والميثاق على ما أراد زودهم بنصيحة غالية خوفا عليهم من الحسد فقال : ﴿ يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾.

قال تعالى : ﴿ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم ما كان يغنى عنهم من ا لله من شئ إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون(٦٨)﴾

والمعنى : أن أباهم أمرهم أن يدخلوا من أبواب متفرقة خوفا عليهم من الحسد ، وما كان ذلك التفرق يغنى عنهم من ا لله من شئ وما كان ليرد القضاء الإلهى فإن العين لو قدر ا لله أن تصيبهم وهم متفرقون لأصابتهم كما تصيبهم وهم مجتمعون.

أما قوله تعالى: ﴿ إلا حاجة فى نفس يعقوب قضاها﴾ وهذه الحاجة إما خوفه عليهم من إصابة العين، أو خوفه عليهم من أهل مصر،أو يقصدهم الملك بسوء ،أو خوفه عليهم من أن لايرجعوا إليه ،ذلك محتمل ثم مدح الله نبيه يعقوب فقال : ﴿وإنه لذو علم لما علمناه ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾وفى الآية إشارة واضحة إلى أن يعقوب عليه السلام على علم عظيم مما علمه الله ومن ذلك أن هذا البلاء لابد لحكمة عالية يعلمها علام الغيوب ولكن أكثر الناس لا يعلمون أن الأمر بيد الله وحده والله سبحانه وتعالى علم أنبياءه وأولياءه العلوم النافعة التى تنفعهم فى الدنيا والآخرة.

﴿ ولما دخلوا على يوسف آوى إليه أخاه قال إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون(٦٩)﴾

قال أهل العلم " أنهم لما أتوه بأخيه بنيامين أكرمهم وأجلس كل اثنين منهم على مائدة فبقى بنيامين وحده فبكى وقال لو كان أخى يوسف حياً لأجلسنى معه فقال لهم يوسف بقى أخوكم وحيداً فأجلسه معه على مائدة ثم أمر أن ينزل كل اثنين بيتا.

وقال هذا لا ثانى له فاتركوه معى فآواه إليه ولما رأى يوسف تأسف بنيامين على أخيه الذى هلك قال له : أتحب أن أكون لك أخاً ؟ قال من يجد أخاً مثلك ولكنك لم يلدك يعقوب ولا راحيل فبكى يوسف وقام إليه وعانقه وقال إنى أنا أخوك فلا تبتئس بما كانوا يعملون.

وأوصاه يوسف أن يكتم عنهم ما أخبره به لأن هذا خبر لم يأت بعد الوقت المناسب لإخبارهم به وأراد يوسف أن يستبقى بنيامين معه .

﴿ فلما جهزهم بجهازهم جعل السقاية فى رحل أخيه ثم أذن مؤذن أيتها العير إنكم لسارقون (٧٠) قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون (٧١) قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وأنابه زعيم (٧٢) قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين (٧٣) قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين(٧٤) قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين(٧٥).﴾

نفهم من هذه الآيات أن يوسف أمر بجعل السقاية فى رحل أخيه ، و السقاية هى: ما كان يشرب بها الملك ويكيل بها الطعام للناس ، ولما جهزهم بجهازهم وخرجوا من المدينة لحق بهم المنادى ينادى عليهم إنكم لسارقون.... فتوقفت القافلة وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون قالوا نفقد صواع الملك ولمن جاء به حمل بعير وقال المنادى : وأنا به زعيم أى ضامن لمن سلمنى صواع الملك.

﴿قالوا تا لله لقد علمتم ما جئنا لنفسد فى الأرض وما كنا سارقين ﴾ فسألوهم وماذا فى شريعتكم لعقاب السارق؟ ﴿قالوا جزاؤه من وجد فى رحله فهو جزاؤه كذلك نجزى الظالمين﴾

(فبدأ) يفتش ويبحث ﴿ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه ثم استخرجها من وعاء أخيه كذلك كدنا ليوسف ما كان ليأخذ أخاه فى دين الملك إلا أن يشاء الله نرفع درجات من نشاء وفوق كل ذى علم عليم (٦٧)﴾ بهذا التدبير المحكم استطاع يوسف أن يأخذ أخاه منهم وإنما فعل ما فعل عن أمر الله فى ذلك لأنه يترتب على هذا الأمر مصلحة عظيمة بعد ذلك من قدوم أبيه وقومه من بلاد كنعان بالشام إلى مصر الغالية بلاد الخير والأمن والأمان.

انفعالات إخوة يوسف

يخبرنا العزيز رب العرش الكريم أن أخوة يوسف عندما عاينوا استخراج الصواع من رحل أخيهم طاش عقلهم وخرجوا عن صوابهم.

﴿ قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل فأسرها يوسف فى نفسه ولم يبدها لهم قال أنتم شر مكانا والله أعلم بما تصفون﴾ إن هؤلاء الإخوة يقصدون يوسف وهل سرق يوسف عليه السلام حتى يرمونه بهذا الذنب ؟ لا والله ما سرق يوسف أبداً وإنما هى أقاويل منها:

١- أن يوسف عليه السلام كان يأخذ الطعام من مائدة أبيه ويعطيه للفقراء المحرومين.

٢- وقيل إنه أخذ صنما كان لرجل في بلاد كنعان وكسره.

٣- وقيل بأن عمته احتالت لتأخذه فى حضانتها وكانت ترث منطقة لإسحاق فعلقتها على يوسف وهو لا يشعر بما صنعت ثم نادت بأن يوسف قد سرقها.

٤- وقيل بأن يوسف قد استولى على قلب ابيه واستأثر بحبه دون أخوته وهذا فى تقديرهم سرقة ولكن الحقيقة أن هذه الأمور لا تعتبر سرقة ولا من قبيل السرقة ثم أخبر القرآن بما كان من إخوة يوسف من اعتذار واستعطاف حتى يرد إليهم بنيامين فقال تعالى وهو أصدق القائلين:

﴿ قالوا يا أيها العزيز إن له أباً شيخاً كبيراً فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين(٧٨) قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذا لظالمون (٧٩) فلما استيئسوا منه خلصوا نجيا قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباكم قد أخذ عليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف فلن أبرح الأرض حتى

يأذن لى أبى أو يحكم الله لى وهو خير الحاكمين (٨٠) ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين(٨١) واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون(٨٢)﴾

وبعد استعطافهم ليوسف واعتذارهم له وعرضهم عليه أن يأخذ واحداً منهم بدلا من أخيهم بنيامين وردهم يوسف رداً حكيما ﴿ معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده إنا إذاً لظالمون ﴾ عند ذلك أصابهم اليأس ويصور الله لنا هذا المشهد إنهم خلصوا يتشاورون فيما بينهم قال كبيرهم فى السن أو كبيرهم فى العقل وهو الذى نهاهم عن قتل يوسف.

﴿أ لم تعلموا أن أباكم قد أخذعليكم موثقاً من الله ومن قبل ما فرطتم فى يوسف فلن أبرح الأرض ﴾ أى أرض مصر ﴿حتى يأذن لى أبى ﴾ فى الانصراف ، ﴿أو يحكم الله لى ﴾ بالخروج منها وهو خير الحاكمين بالعدل والحق.

﴿ ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق ﴾ أى أخبروه بما رأيتم من الأمر ﴿وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها ﴾ فإن هذا الأمر اشتهر بمصر ﴿وإنا لصادقون﴾.

وماذا يفيد يعقوب من أعذار ومعاذير إلا أن يستسلم لقضاء الله وقدره ، وينصرف إلى الله يدعوه ويطلب منه الفرج القريب.

﴿ قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعاص إنه هو العليم الحكيم(٨٣) ﴾

وانصرف يعقوب عن الحديث مع أبنائه فى شأن أخيهم الذى افتقدوه فى مصر وبكى وطال بكاءه حت نفذت دموعه وابيضت عيناه من الحزن.

﴿ وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم (٨٤) ﴾

قال الإمام الفخر الرازى:

واعلم أنه لما ضاق صدره بسبب الكلام الذى مسعه من أبنائه فى حق بنيامين عظم أسفه على يوسف (وقال ياأسفى على يوسف) وإنما عظم حزنه على مفارقة يوسف عن هذه الواقعة لوجوه:

(الوجه الأول) : أن الحزن الجديد يقوى الحزن القديم الكامن والقدح إذا وقع على القدح كان أوجع.

(الوجه الثانى) : أن بنيامين ويوسف كانا من أم واحدة وكانت المشابهة بينهما فى الصورة والصفة أكمل فكان يعقوب يتسلى برؤيته عن رؤية يوسف عليه السلام فلما وقع ما وقع زال ما يوجب السلوة فعظم الألم والوجد.

(الوجه الثالث) : أن المصيبة فى يوسف كانت أصل مصائبه التى عليها ترتب سائر المصائب والرزايا ، وكان الأسف عليه أسفاً على الكل.

(الوجه الرابع) : أن هذه المصائب الجديدة كانت أسبابها جارية مجرى الأمور التى يمكن معرفتها والبحث عنها، وأما واقعة يوسف فكان عليه السلام يعلم كذبهم فى السبب الذى ذكروه ، أما السبب الحقيقى فما كان معلوما له وأيضا أنه عليهالسلام كان يعلم أن هؤلاء فى الحياة - أى بنيامين والذى قال لن أبرح

الأرض حتى يأذن لى أبى - وأما يوسف فما كان يعلم أنه حى أو ميت ، فلهذه الأسباب عظيم وجده على مفارقته(١)

قوله : ﴿وابيضت عيناه من الحزن فهو كظيم﴾ أى من كثرة البكاء (فهو كظيم) وهو للمسك على حزنه فلا يظهره قال ابن قتيبة : ويجوز أن يكون بمعنى المكظوم ومعناه المملوء من الحزن مع سد طريق نفس المصدور من كظم السقاء إذا اشتد ملئه ، ويجوز أيضا أن يكون بمعنى مملوء من الغيظ على أولاده(٢)

فلما رأى بنوه ما يقاسيه من الوجد والفراق على أولاده قالوا على سبيل الرحمة والرأفة به والحرص عليه ﴿ تا لله تفتؤا تذكر يوسف حتى تكون حرضا أو تكون من الجاهلين﴾ إنك لا تزال تذكر يوسف بالحزن والبكاء عليه حتى تصير بذلك إلى مرض لا تنتفع بنفسك معه أو تكون من الهالكين أى من الأموات.

﴿ قال إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله وأعلم من الله مالا تعلمون(٨٦)﴾

لست أشكو إلى أحد من الناس ما أنا فيه إنما أشكوه إلى الله ، وأعلم أن الله سيجعل لى مما أنا فيه فرجاً ومخرجاً (وأعلم من الله مالا تعلمون) أى أعلم من رحمته وإحسانه مالا تعلمون. ثم قال لهم محرضاً على البحث عن يوسف وأخيه:

﴿ يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله أنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون(٨٧)﴾ وصاهم أبوهم أن يتحسسوا أخبار يوسف وأخيه وطلب الشئ بالحاسة هو

------

(١) بتصرف من تفسير الفخر الرازى ١٨/ ١٩٧ مصدر سابق.

(٢) من المصدر السابق.

شبيه بالسمع والبصر والمعنى تحسسوا خبراً من أخبار يوسف (ولا تيأسوا من روح الله) أى لا تيأسوا من الفرج من الشدة (فإنه لا ييأس من روح الله) فرجه ولطفه ورحمته وما يقدره سبحانه من المخرج فى المضايق (إلا القوم الكافرون).

أما المؤمن فإنه لاييأس من رحمة الله ولا يقطع الرجاء من فضله وجوده وإحسانه أبداً ﴿ ومن يتق الله يجعل له مخرجاً (٢) ويرزقه من حيث لا يحتسب ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكل شئ قدرا(٣)﴾ .(١)

إن نبى الله يعقوب أمرهم أن يذهبوا إلى مصر فأطعوا أمره وحملوا متاعهم ورحلوا إلى هناك.

﴿ فلما دخلوا عليه قالوا ياأيها العزيز مسنا وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاه فأوف لنا الكيل وتصدق علينا إنا لله يجزى المتصدقين (٨٨) قال هل علمتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون (٨٩) قالوا أئنك لأنت يوسف قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فأن الله لا يضيع أجر المحسنين(٩٠)﴾

نفهم من سياق الآيات أن إخوة يوسف رجعوا إليه من بلاد كنعان وقد أصابهم الجدب وضيق الحال فقالوا له (ياأيها العزيز مسناً وأهلنا الضر وجئنا ببضاعة مزجاة)

------

(١) سورة الطلاق.

رديئة ضعيفة لا يقبل مثلها منا إلا أن تتجاوز عنا (فـأوف لنـا الكيـل وتصـدق علينا أن الله يجزى المتصدقين) بقبول هذه البضاعة ورد أخينا إلينـا. فلمـا رأى يوسف أخوته وما هم فيه من شظف العيش وضيق الحال تعرف عليهم وقـال : (هل علمتم ما فعلتم بيوسـف وأخيـه إذ أنتـم جـاهلون) (قـالوا أئنـك لأنـت يوسف) "قال أنا يوسف وهذا أخى قد من الله علينا " بالجمع بيننا بعـد الفرقـة " إنه من يتق ويصبر " يتق معاصى الله ويصبر علـى أذى النـاس ،" فـإن الله لا يضيـــع أجـــر المحســـنين" الذيـــن يقـــابلون الإسـاءة بالإحســـان. ولما ذكر يوسف لإخوته أن الله من عليه صدقوه واعترفوا له بـالفضل والمزيـة " ﴿ قالوا تا لله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين (٩١) قال لا تـثريب عليكـم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين (٩٢) اذهبوا بقميصى هذا فألقوه علـى وجه أبى يأت بصيرا وأتونى بأهلكم أجمعين(٩٣)﴾

لقد عفا يوسف عن إخوته " وقال لا تثريب عليكم اليـوم" أى لست أعاتبكم ولا ألومكم وطلب المغفرة لهم من الله "يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين"

وأمرهم بأن يذهبوا بقميصة فيضعوه على عينى أبيه ليرجع إليه بصـره بـإذن الله وهذا من خـوارق العـادات ودلائـل النبـوات ، ثـم أمرهـم أن يحضـروا أهلهـم أجميعن إلىديار مصر إلى الخير والسعادة وجمع الشمل بعد الفرقة والشتات.

قال تعالى: ﴿ ولما فصلت العـير قـال أبوهـم إنـى لأجـد ريـح يوسـف لـولا أن تفندون(٩٤) قالوا تا لله إنك لفى ضلالك القديم (٩٥)فلما أن جاء البشير ألقـاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله ما لاتعلمون (٩٦)

قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين (٩٧) قال سوف استغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم(٩٨)﴾ لما خرجت العير من ديار مصر متوجهة إلى بلاد كنعان قال يعقوب لمن حضر من أهله وقرابته وولد ولده على بعد مسيرة عشرة أيام - ثمانون فرسخا- إنى لأجد ريح يوسف أى أشم رائحته لولا أن تنسبونى إلى الجهل والخرف ،تعجب الحاضرون عنده وأقسموا (تا لله إنك لفى ضلالك القديم) ، أى إنك لفى شقائك القديم بما تكابد من الأحزان على يوسف.

وقد قالوا هذه الكلمة الغليظة التى ما كان ينبغى أن يقولوها وإنما خاطبوه بذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات (فلما أن جاء البشير ألقاه على وجهه فارتد بصيرا قال ألم أقل لكم إنى أعلم من الله مالا تعلمون) فاعتذروا لأبيهم وقالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا إنا كنا خاطئين. قال سوف أستغفر لكم ربى إنه هو الغفور الرحيم)

رحلة يعقوب وأولاده إلى مصر

وجاء يعقوب وبنوه إلى مصر الغالية للقاء يوسف عليه السلام وخرج يوسف لا ستقبالهم ويصور لنا القرآن الكريم مشهد اللقاء بين الحبيب والحبيب بعد فراق طويل وكان اللقاء معطرا بالحب والعفو عن المسئ عفا يوسف عن إخوته بعد أن ألقوه فى غيابة الجب وعفا يعقوب عن بنيه بعد أن فرقوا بينه وبين يوسف - نعم كان اللقاء لقاء عفو وتسامح.

قال تعالى: ﴿ فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين(٩٩) ورفع أبويه علىالعرش وخروا له سجداً وقال ياأبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقاً وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاءبكم من البدو من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم (١٠٠)﴾

عندما وصل يعقوب وبنيه أرض مصر أسرع يوسف عليه السلام باستقبالهم وضم إليه أبويه واعتنقهما وفرح بهما وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين من كل ما يعكر صفو الحياة (ورفع أبويه على العرش) أى أجلسهما على سريره الذى كان يجلس عليه.

(وخروا له ساجدين) أى سارعوا بتحيته والسجود له على سبيل التكريم وكانت هذه عادتهم وتحيتهم فهذا السجود كان انحناءة وليس كسجود العبادة بوضع الجبهة علىالأرض لأن ذلك لا يجوز إلا لله الغزيز الحميد.

وتذكر يوسف رؤياه التى رآها فى بادئ الأمر (وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقاً وقد أحسن بى إذ أخرجنى من السجن وجاءبكم

من البدو بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى إن ربى لطيف لما يشاء إنه هو العليم الحكيم).

تضرع ودعاء

﴿رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولى فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين﴾

قائمة المراجع

١ - إعجاز القرآن للباقلانى

٢- إعجاز القرآن للرافعى

٣- الإعجاز الطبى فى القرآن للدكتور الجميلى

٤- الأدلة العلمية على جواز ترجمة معانى القرآن إلى اللغات الأجنبية لمحمد فريد وجدى

٥- الفقه على المذاهب الأربعة

٦- القول السديد فى حكم ترجمة القرآن المجيد

٧- التصوير الفنى فى القرآن لسيد قطب

٨- الشفا بتعريف حقوق المصطفى

٩- الرد على النحاة لابن مضاء

١٠- الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى

١١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن المجيد لأبى السعود

١٢- التحرير والتنوير لابن عاشور.

فهرست الموضوعات

رقم الإيداع
١٩٩٤/١٢/١٣/١١٣٨٢م
دار الطلبة – ٣ ميدان السيدة زينب